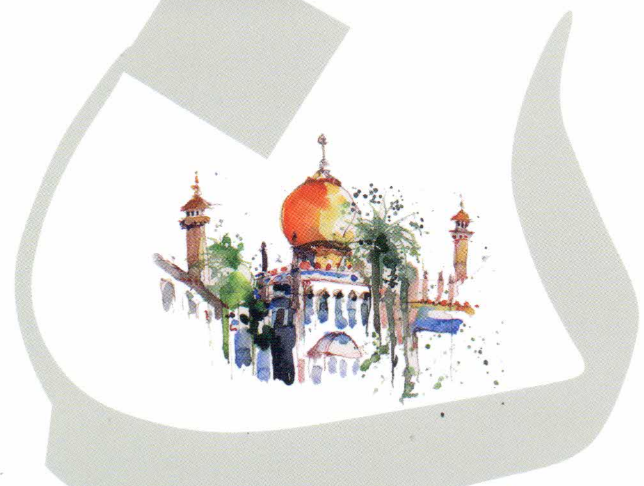
هبة رءوف عزت

في ظلال رمضان



جسور للترجمة والنشر



هذا الكتاب رحلة تدبّر في القرآن.. وفي مقاصد رمضان.

وفيه نظرات في المعاني والمدارات والغايات.

جوهره النظر في علاقة الإنسان بأركان دينه، وبالكون، وما تحدثه العبادة من تغيير في وعيه بالوجود والزمن والتاريخ.. والرُجعى، كما يستكشف الأبعاد الاجتماعية لهذا الركن من دين الإسلام.

في هذا الكتاب وقفة مع النفس كي لا تسقط في أسر الاعتياد فتفقد التعظيم لجوهر العبادة، وهو استعراض لمسيرة ومسار رمضان، واستجلاء لحكمة العيد، وربط ذلك كله برباط الأمة.

إنه تأمّل في علاقة النفس.. بالجسد، والحواس.. بالنِعم، والقلب.. بمدارج الروح.

إنه كتاب يراجع فهمنا للدين، فيستعيد للفريضة ارتباطها بمنظومة العقيدة، ويسعى إلى إحياء جوهر التوحيد في الأفئدة.

هذا كتاب في ظلال رمضان.. وفي سبيل الله.

الثمن: ٣ دولارات

أو ما يعادلها

ISBN 978-614-431-797-6





في ظلال رمضان

في ظلال رمضان

هبة رءوف عزت



جسور للترجمة والنشر

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد جسور للترجمة والنشر

في ظلال رمضان/ هبة رءوف عزت.

١١٢ص.

ISBN 978-614-431-797-6

١. الشعائر الدينية ـ الإسلام.

أ. العنوان.

297

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن وجهة نظر جسور للترجمة والنشر»

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٥

جسور للترجمة والنشر

لبنان ـ بيروت
josour.pub@gmail.com

المحتويات

رمضان... وأيام الله

يهلّ علينا كل عام... شهر فيه ليلة خير من ألف شهر... أي عمر بأكمله... يأتي ليجدّد للمؤمن عقيدته في أيام نفحات: فريضة ورحمة... عبادة ومغفرة... تهجد وعتق. شهر يجدّد للأمة معرفتها برسالتها فتجتمع على خير وبِر وعبادة وتستشعر أمانتها تجاه عالم الغيب وعالم الشهادة، أيام جلاء للفطرة وشحذ للوعي برسالة التوحيد الخالص لله تعالى... وقراءة للوحي واتّباع لهدي المصطفى واستباق للخيرات.

والحق أن رمضان مدرسة جامعة، ففيه أداء شهادة العقيدة المتجدّدة لأن الصوم صلة بين العبد وربه، وهو لله وهو يجزي به، وفيه صلاة القيام تُقوّي معنى «إقامة الصلاة» في حياة المسلم، وفيه ترويض الجسد وتهذيبه بالامتناع عن الطعام وعن الشهوات في نهار رمضان... فلا رهبانية في الإسلام بل فيه هذا الجهاد المتجدّد المشتبك مع الكدح... وفيه تجديد النية، وفيه معنى التزكية للذات وللمال بنافلة تزيد على الفريضة ـ ويختار البعض أداء زكاته في رمضان ليزيد الله له في الأجر، وفيه توجُّه المسلمين للقبلة وتوحيدها برابطة عبادية وروح ربانية وتهذيب للألسنة والأفئدة ـ ففيه ملمح من فيوضات الحج.. ودروسه.. والهجرة ومعانيها.

ورمضان مراجعة لمسيرة التاريخ، ففيه تذكِرة بنزول الوحي، وبنصر الله للمجاهد الصائم في بدر. وأمة لا تعرف تاريخها فتفاخر بانتصاراته وتتعلم من دروسه وتسترجع فلسفته وتجدد أمره هي أمة منبتّة الصلة بجذورها تسيح في تيه «الآن وهنا»، والإسلام برؤيته للتاريخ: مبتدأ... ورُجعى، أزل.. وأبد، دورات.. وسنن، تدبير حكمة وجدلية تدافع ومسعى تعارف، إرادة الإنسان... ومدد الله، قوة الحق وضعف كيد الشيطان، عزم أولي البصيرة والصدق ووهن وهوان إرادة الباطل... فمنطق رمضان يستدعي الغيب لساحة المادية ليحقق فلسفة الميزان... بمثلما الحج تذكير بأنبياء الله ومسيرة الإسلام وشعائر الله عبر النبوات ومسار دعوتها في التاريخ، فالرؤية الإسلامية تحتفي بقيمة التاريخ وتواصله كما تحتفي بالزمن وفلسفته، وبالروح ومركزيتها، فتلك الأيام هي «أيام الله»... وكل الأيام أيام الله... منها أيام الابتلاءات ومنها أيام الآيات ومنها أيام النفحات، والله فضّل بعض الأيام على بعض، وبعض البقاع على بعض، وبعض الأفعال على بعض.

يصوم المؤمن في رمضان ويجاهد جهاد النفس في موسم من مواسم المغفرة، فيدرك أن الزمن ليس آلة ميكانيكية تدق بإيقاع رتيب بل هو فيض من اللحظات وعطاء من الإشراقات، وهو رأسمال العمر... ومنه ليلة هي بعمر... فيملأ أيامه ولياليه بالطاعات، والاستغفار عما فات.

ورمضان استعادة لمركزية الغيب في التصور الإسلامي، ذلك الغيب الذي يوقن به المسلم فيدفعه إلى التخلي عن المتع العاجلة ابتغاء مرضاة الله، ولولا ذلك لما كان للصوم قيمة، فالإنسان

الذي يسعى إلى المتعة العاجلة، ولتعظيم منفعته المباشرة المادية لا يرى في الصوم إلا معاناة لا جدوى منها ولا طائل من ورائها، فالصوم مدرسة اليقين وأحد مدارج السالكين في عالم مركزية الـ«أنا» وتلبيس منطق الحياة وهوس المتعة الاستهلاكية، فيأتي رمضان ليكون ومضة نورانية تعيد توازن الدنيا والآخرة، من «الأنا»... إلى الأمة، ومن الـ«هنا»... إلى الملأ الأعلى.

وهو شهر يجتمع فيه الناس على الإفطار والسحور فتتوثق عرى الأسرة وتتواصل الأرحام وتنصهر الفوارق، وتسري في الجماعة روح من البر والمودة والتراحم، فيدرك المسلم أن فردية الصوم في علاقة الفرد بربه موصولة بجماعية المقاصد، فالإسلام يرى خلاص الفرد يوم القيامة عبر صلاح الجماعة ويكرس في فرائضه هذا التلاحم بين الفردي والجماعي، والخاص والعام، والعبادي والاجتماعي... والخير المبسوط الكف لمن لا نعرف... من عرب وعجم... مسلمين ومؤمنين من أهل العقائد الأخرى، ففلسفة الصوم مشتركة بين الأديان... والأوطان مساحات جامعة لتجليات الشعائر.. شعائر الله.

فرمضان مفردة من نموذج توحيدي جامع متكامل، وهو في الوقت ذاته يحمل في داخله كل عناصر هذا النموذج مصهورة ومصقولة، ومن الأهمية بمكان أن يفهم الإنسان المسلم أن كل مفردة من مفردات الجزء تحمل مجمل خصائص الكل كما تحمل الخلية في جسد الإنسان بصمتها الجينية وخريطتها الكاملة، لذا فإن معاني رمضان تسري في غيره من العبادات والشعائر.

يبقى أن نستوعب أن رمضان شهر للنهضة، فمفتاح النهضة في الرؤية الإسلامية وعي وتعاون وقيام وقوامة وحساب لقيامة:

- وعيٌ برسالية المسلم ومسؤوليته عن العالم، وكيف ينهض بالعالم بغير قلب موصول بالله وروح تستلهم منه القوة؟

- وتعاونٌ على الحق والصبر، وكيف تنهض أمة تتشظى أفراداً وأحزاباً فلا تصطف كالبنيان المرصوص؟ هذا الاصطفاف الذي ترمز له صفوف المصلين في ساحات المساجد قياماً وركوعاً وسجوداً.

- وقيامٌ بالأمانة، فكيف يقوم بالقسط ويقوم لله ليكون شهيداً على الناس من لا يستطيع أن يقوم مصلياً فيقهر كسل النفس وأثقال الجسد ويصبر على العبادة ويتّخذ منها الزاد ليكون من القوامين الشهداء.

- وتذكِرة بالقيامة، واستشرافٌ لعالم الغيب.. فتجلو العبادة مرآة الروح ليبصر فيها المؤمن ما لا تراه العيون فتكون جائزة الدنيا: «ليلة قدر» هي قبس الغيب بملائكته ورحماته القدسية، وبشرى في يوم قيامة يحصد المسلم فيه ما زرع من لحظات عبادة... فمن دون وعي بالقيامة وتلمس لسر الروح لا تصبر أمة على العدل والعمل، وشتان بين سعي وعمل ابتغاء الدنيا وبين سعي وعمل من أجل حسن ثواب الدنيا والآخرة: «لي وأنا أجزي به».

رمضان ليس شهر عتق الأفراد من النار فحسب، إنه أيضاً شهر عتق الأمة من غرور الدنيا مع ردها في الوقت نفسه إلى الوعي بحضارتها وحضورها في العالم، وهو مَعين لا ينضب من المعاني التي تقترن بمقاصد الشرع، فإن أقامت الأمة صيامها كما تقيم صلاتها و"تدفع" زكاتها، ووفت بشروطه، كان من حقها أن تحتفل بعده... جمعاء... بأيام عيدها.

نحن... ورمضان

كثيراً ما نظن أن النفس ومراتبها وأحوالها رهينة بالإرادة الفردية وحدها، وأن الإنسان لو أراد أن يؤدبها ويطوع النفس الأمارة بالسوء فما عليه إلا أن يروضها ـ بينه وبينها ـ فتنصلح الأحوال، ويظفر في نهاية الأمر بنفس مطمئنة، وأن العبادة الفردية المحضة هي السبيل لتلك المهمة.

والحق أن القارئ المتأمل في كتاب الله والدارس للسيرة النبوية ودروسها الإنسانية، ومقاصد الشرع وقواعده وحكمته الربانية يدرك بجلاء أن النفس كما أنها أمانة فردية فإنها نتاج روابط اجتماعية وعلاقات تفاعلية تتأثر بها وتؤثر فيها، لذا تكرر استخدام لفظ «أنفسكم» بصيغة الجمع في القرآن. ومن هنا فإن الإصلاح والفساد بمفهومهما الواسع لهما مستويان: فردي وجماعي، والدوائر بالغة التركيب والتشابك، وميزانها فريد.

القرآن يكرر كما ذكرنا لفظ «أنفسكم» للدلالة على أن هناك «نفس» الفرد و«أنفس» الجماعة الإيمانية، وأن العدل والظلم، والقسط والجور، تنتشر في دوائر المجتمع سلباً وإيجاباً، ولا يتم التغيير للقوم إلا بتغيير ما بأنفسهم فرادى وجماعات، وأن

تغيير النفس قد يعين عليه صلاح الجماعة ويعوقه فسادها، ومن هنا حكمة الأمر بالمعروف والنهي المنكر، مع الاحتفاظ بحق الفرد في مساحات الخصوصية وقراراته الشخصية، والتوازن والتمييز مسألة تحتاج إلى دقة بالغة لذا وصف الله الشرع بـ«الميزان»، فإذا اختل ضاع العدل.

والجماعة ليست فقط مجموع الأفراد، بل عالم الأشخاص في تفاعله مع عالم المؤسسات والأحداث والعلاقات، وكذلك تعامله مع الهياكل الحديثة من أبنية اقتصادية واتصالية تشتبك بشكل لصيق بالفرد والجماعة فتغير من ملامح الثقافة وتبدل الفطرة أحياناً ليعم الفساد، والأخطر هو أن يتم التطبيع معه.

وإذا كان السوق يقوم على استهلاك كل ما هو منتَج، فإن حكمة رمضان تتمثل في التحكم في السوق وفي الاستهلاك كي نضمن ألا يتم الاستهلاك للإنسان ذاته في ظل ثقافة تزن الفرد بما يملك ويستهلك لا بما يحوز من فضائل أو رأسمال اجتماعي وأخلاقي.

رمضان تهذيب للرغبة وترويض للهوس بالأشياء والمتاع، وشحذ لهمة الروح كي يتوازن الكيان الإنساني ويتم جلاء الفطرة من أدران الحياة اليومية العادية وإيقاعها اللاهث.

فالإنسان الذي يقضي جل يومه في مناخ البيع والشراء والاستهلاك والصور الإعلانية ويستلبه عالم الأشياء يحتاج إلى وقفة وعودة إلى عالم الذات لينفرد بنفسه، واستقامة لعالم الأشخاص ليتواصل، والصلاة مع صف الجماعة، فالروح التي

أغرقتها المادية الطاغية تطفو وتشرق مرة أخرى بالذكر والتقرب إلى الله بالطاعات.

رمضان شهر عودة الإنسان إلى ذاته وتأمله في أحواله، وتواصله مع ربه ليسجد ويقترب... ويعود إلى مجتمعه ليصل ما انقطع... وليربط ما انفصم.

فإذا صار رمضان سوقاً للطعام، وشهراً لتزايد مبيعات السلع، وتفنناً في مخاطبة الشهوات بعد صلاة المغرب وارتياداً لأماكن اللهو واللغو.. فإننا نكون كالذي استجار من الرمضاء بالنار.. ونكون قد خسرنا رمضان.

رمضان أيضاً فرصة لأن ننفرد بأنفسنا، ففي ظل سباق جري الوحوش عادة ما نستيقظ لنقفز إلى الشارع نسعى ونكد من أجل لقمة العيش، نغالب الحياة وتغالبنا، ونعود لنتابع تفاصيل الأمور الأسرية ودروس العيال ومشكلات الجيران والأقارب، وندلف إلى فراشنا شبه قتلى من التعب أو ربما «نسقط نائمين» من شدة الإعياء، فتفوتنا في كل يوم فرصة الجلوس إلى النفس وطمأنتها، ونغترب عن ذاتنا، وحين نجد فرصة للهدوء نفتح أي جهاز آلي وكأننا نريد أن ننشغل عن أنفسنا.

رمضان فرصة للانفراد بالنفس بين يدي الله، واستئناف الحوار الداخلي الذي انقطع مع النفس اللوامة.. ذلك الضمير الذي خبأناه تحت طيات الهموم والمشاغل، وفرصة لترويض النفس الأمارة بالسوء كي نواجه أنفسنا بما نحذر ونتجنب، ونتوب إلى الله من كل معاصينا، كي نخرج من هذا الشهر أكثر صدقاً وصفاءً وإخلاصاً.

رمضان شهر هدى وبينات، ومغفرة ورحمات، وجهاد نفس واستعادة السلام مع الناس ومع الذات.

رمضان كريم.

من أنت؟

من أنت؟

لا أحد يتحدث عن نفسه.

الجميع يتحدثون عن الظروف الحياتية أو الأنساب أو الأماكن أو الجماعة الدينية أو العرقية أو الجنسية.

لا أحد يتحدث عن نفسه.

من أنت؟

هذا من أصعب الأسئلة.

أنت..

أنت ذات لها وجود متفرد، خريطة من المفاهيم والمشاعر والأحاسيس التي قد لا يعرفها سواك، لذا قد يصدمنا تصرف البعض بعد أعوام من التعارف، فقد كانت تلك الذات متخفية وراء حجاب المظهر والمجاملة لكن الأيام تكشف وجوهاً أخرى لم يكن أحد يتحسبها... تكشف طبيعتها المواقف والأزمات.

وأنت...

أنت تاريخ مركب، مسيرة من العمر لها أيضاً طابعها الفريد، وعلاقتها بأزمنة متراكمة، وذكريات تحدد التصورات وخبرات تصوغ المواقف والقرارات، بوعي أو من دون وعي. وما بين التاريخ الفردي والاجتماعي وطبقاته العميقة وقشرته الخارجية، والتعامل مع الزمن والوقت، والرؤية للمستقبل - تتشكل شخصية الإنسان.

وأنت. . .

أنت ذات تدور في مكان بل أمكنة صنعت تلك الشخصية في بعدها المادي، من بادية أو ريف أو حضر، من مساحة شاسعة كنت تلعب فيها أو مكان ضيق كنت تعيش فيه، ترى الشمس أو تظلم في عينك الصغيرة الدنيا لأن نافذتك تطل على نوافذ أخرى ينتهك بعضها خصوصية بعض، مساحات تنوعت وأنت تحبو وتمشي وتجري وتسافر، مجالات للبصر وفضاءات للعقل تتشكل منها مساحات النفس في أعماقها. . . وينمو مفهوم البيت والوطن والعالم. . . وينمو معه مفهوم الهوية.

وأنت. . .

أنت عقل يستكشف العالم، يضع لنفسه تصوراً عن الأشياء والبشر، ويدير آلة الجسد واللغة والمشاعر في تناغم، أو ربما يربك التناسق حين يهمل دوره ويعطل قدراته ويترك الجسد والمشاعر والظروف تدير حياتك، أو يطغى حين يضخم من قدراته. . . فيستعلي ويستكبر ويزعم أن الرأي الواحد أكثر رشداً من رأي الآخرين، هذا العقل الذي قد يحملك إلى عالم العباقرة

وقد يبقيك ضمن قطيع المستلبين المسلّمين القيادة لعقول الآخرين والمستقيلين من التفكير والإرادة والفعل.

وأنت...

أنت لغة، منطق للتفكير وأداة للتعبير، أو لغات تبلبل الألسنة وتربك الوعي بتداخل الدلالات، لغة لسان ولغة وجدان، ولغة جسد يعبّر عن الداخل لكنه يرسل إشارات إلى الخارج تفصح عنك.

وأنت...

أنت جسد يتحرك ويسعى، علاقتك به توازن أو تجاهل أو تمركز حوله، وهو تعبير عن مفاهيم ووعي، وذاكرة وتاريخ، كيف تسكن في هذا الجسد؟ وماذا تفعل به؟

وأنت..

أنت كتلة من المشاعر تنقسم حول تركيبها أنماط من الشخصيات، بعضها بارد وبعضها متدفق دافئ، بعضها نفعي أناني بخيل وبعضها مفرط في الكرم والعطاء، ما مشاعرك تجاه نفسك أولاً؟ وهل تحب هذه النفس لتنطلق بها إلى العالم أم تحبها وتكره العالم أم تكرهها وتدمر العالم؟ ذاتك العاطفية هي القلب النابض فيك، قد تترقى في العلم والعمل، لكنك تظل فقيراً في عواطفك هشاً في مشاعرك طفلاً في انفعالاتك، وقد تغنيك ذاتك العاطفية برأس مال من العلاقات يعوضك عن قلة المال أو فقر الأمكنة.

وأنت...

أنت عضو في مؤسسات، من الأسرة إلى مكان الدراسة أو العمل، إلى النادي والمسجد، والنقابة والدولة.

ذاتك تشكّل هذه المؤسسات لأنك طرف فاعل فيها، لكنها أيضاً تعيد تشكيلك، من الأسرة التي تقوم بغرس المفاهيم، إلى المدرسة التي قد تكرسها أو تزرع مكانها مفاهيم أخرى بديلة أو معارضة، إلى المسجد الذي قد يحملك إلى السماء أو يبقيك في الصف بين الناس جسداً بلا روح، إلى القبيلة التي تدخلك في زمرتها أو المذهب الذي يمنحك قوة التضامن أو يحرمك حرية التفكير المستقل، إلى الدولة التي تحدّد لك في أحيان كثيرة حركتك ورؤيتك ومجالات مشاركتك أو تمنعك من هذا كله... وتطلب منك الطاعة والولاء.

وأنت...

أنت كائن له علاقة بالغيب، هل تؤمن به أم تتجاهله، هل تدخله في حساباتك مع ذاتك أم تكتفي برمزيته في حياتك من دون أن يدل الرمز على جوهر، هل تحوله إلى طاقة خلاص لك وحدك فتدور به حول كعبة أنانيتك أم تجعله طاقة تطلقها في الكون لتسير في مدارات الخلق وتغير به العالم.

وأنت...

أنت ذات تناضل اليوم في عالم يموج بالآلات، ضوضاء صوتها ووتيرة سرعتها تفقدك عقلاً وروحاً وجسداً وقدرتك على التقاط أنفاسك، وتصبح الآلة هي الوسيط بينك وبين العالم وحجاباً جديداً على الذات يربك من حولك ويجعل محاولة فهم الذات وفهم العالم أصعب. المعلوماتية في حد ذاتها لا تقدّم

رؤية إلى العالم ولو نزلت في محيطها توشك أن تغرق، ذاتك المتماسكة هي قارب النجاة، ووعيك بهذه الذات هو الذي يرشدك، فأنت لا تتحقق ولا تكون بمحض آلات تستخدمها فتستخدمك... بل أنت قبل الآلة ومن دون الآلة وفوق الآلة... أنت ذات لا تضيف إليها الآلة قيمة... ولا ترفع من شأنها إذا كانت هي في أصلها متبعثرة متشظية.

من أنت؟ من أنت؟

«تحدثي عن نفسك».. يسألني البعض فأصمت.

من الصعب أن أتحدث عن نفسي... قد أحتاج إلى عمر كي أفهمها قبل أن أبدأ في الحديث عنها.

وقد أتحدث وأنا لم أعرفها بعمق بعد، وقد أسعى إلى الإمساك بالمعنى لكنه يفلت مني، وأتغير وتتغير اللغة، وأحاول من جديد.

أحاول أن أفلت من المأزق بأن أطلب من الآخرين أن يتحدثوا هم عن أنفسهم، أبادر بالسؤال قبل أن يباغتني به أحد... فيفعلوا... ويستفيضوا... كلام كثير عن كل ما حولهم لكن... لا شيء عن أنفسهم، ثم يذهبون... ويقولون بعدها نعرفها جيداً، فلا هم عرفوني ولا أنا عرفتهم.

من أنت؟

من أنت؟

سؤال مفتوح على الكون ومبني للمجهول: أنت.

لا تموتن إلا وأنتم مسلمون

يبدأ التوحيد بـ«لا».

لا إله إلا الله هي سِدرة منتهى العلم: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1].

والتوحيد هو مبتدأ الوجود الإنساني ومنطلق التحرر مما سوى الله، لأنه... أكبر، فإن حاول أحدٌ المجادلة في التوحيد يكون رد المؤمن على دعوة الشرك: «قل لا أشهد»، مستجيباً لدعوة ربه: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[2].

لاءاتٌ ثلاثٌ تترتب على ذلك: لا شرك، لا اتباع للهوى، ولا اتباع لخطوات الشيطان...

والإسلام اختيار... ومسؤولية، والمبادئ الأساسية المترتبة على «لا إله إلا الله» هي:

لا إكراه في الدين. ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها. لا تزر

---

(١) «سورة محمد،» الآية ١٩.

(٢) «سورة العلق،» الآية ١٩.

وازرة وزر أخرى. وحين تستقر تلك المبادئ فـ: إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي...

«لا» نافية... و«لا» ناهية هي التي تحدد ملامح المجتمع الإسلامي، وتتوالى الآيات التي تتكرر فيها «لا»... تنهى عن نقض الأيمان والعهود، وعن كتمان الشهادة، وعن أكل الأموال بالباطل، وعن عضل النساء وإيذائهن، وعن البغي. «لا» الناهية في القرآن هي دائماً ضد الظلم، ومع العدل الذي هو مناط التشريع، بل إخلاص العقيدة مناطه العدل، لأن الله وصف الشرك بأنه ظلم عظيم. فتوحيده وعبادته هو عدل الإنسان مع نفسه في التسليم لمن خلق وبرأ، وهناك «لا» تنهى المؤمن عبر بيان ما لا يحبه الله، فتصبح الطاعة قرينة اليقين به والتقرب إليه بترك ما يكره والدخول إلى رحاب محبته بعد اجتياز بوابة الفرائض، فيكون الانتهاء عما نهى عبادة فردية، ومسؤولية اجتماعية، ومصلحة دنيوية وأخروية، وقُربى العابد المُحب. فالله لا يحب الكافرين ولا الظالمين ولا المعتدين ولا الخائنين ولا المفسدين، ولا يحب الجهر بالسوء من القول، ويأمر ألّا تقول لوالديك أف ولا تنهرهما، وألا يسخر قوم من قوم، وألا تتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وألا نكره فتياتنا على البغاء، وألا نؤتي السفهاء أموالنا، وألا ننقض الأيمان، وألا يؤخَذ من قنطار النساء شيء، ورسله ينهون عن سوء الخلق في كثير من قصص القرآن لأنه مؤذن بفساد العمران، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تطغوا، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، ولا تبطلوا صدقاتكم - ثم تأتي «لا» في التحريم وتتكرر

«لا يحل لكم» في معرض بيان الحرمات في مواضع مختلفة.

لاءات الرحمات

لكن اللاءات ليست كلها تحريماً ونهياً، فهناك في القرآن كثير من لاءات الرحمة، تحريم ورحمة في: لا تقتلوا أنفسكم ولا تقتلوا أولادكم، ولطف وجبر في: لا تهنوا وتحزنوا، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، ويقين في: لا تحسبن الله غافلاً، وقسط في: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم، وبشارة في: لا غالب لكم، وأمان في: لا تخشوهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وتواصٍ بالحق والصبر من أجل يوم لا تظلم فيه نفس. القرآن نفسه وصف بأنه: لا ريب فيه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يمسه إلا المطهرون.

وتواترت اللاءات في وصف الغيب يوم القيامة سخرية ممن قالوا لا يبعث الله من يموت، وتحذيراً في: لا تأتيكم إلا بغتة، وميزاناً في: لا ظلم اليوم ولا شفيع، ولا يؤذن لهم فيعتذرون، ولا يخفف عنهم العذاب، ولا تخفى منكم خافية، وقسطاً في يوم لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة. واللاءات في الدعاء على لسان المؤمن كثيرة، في: لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به.

وفي التوسل: لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين، وفي الاستغفار: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، وفي التسليم: لا قوة إلا بالله.

في البدء كان السؤال

ميّز الله الإنسان بالعقل... وبه حرره: بالسؤال وبالاختيار بين نعم ولا.

فالحرية في القرآن كامنة في صيغ السؤال، وفي حركة العقل نحو المعرفة من أجل حرية الاختيار، ولا نبالغ إذا قلنا إنه: «في البدء كان السؤال».

قبل «كُن» كان الخبر: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، وجاء سؤال الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾[2]، ثم كانت ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وعلّم الأسماء، ولا تقربا، وعصى آدم، وتاب عليه وهدى، ثم اهبطوا، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم.

وسنة الله في الخلق: ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم.

ولم يكن طرد إبليس من الرحمة لأنه قال «لا»، بل لأنه

---

(١) «سورة البقرة،» الآية ٣٠.

(٢) «سورة البقرة،» الآية ٣٠.

أبى واستكبر وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[3]، ثم حسد فقال: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ وتجاوز وقال: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾.

وعهد الفطرة الذي أخذه الله من ظهور بني آدم قبل خلق الأجساد كان سؤالاً وجواباً: ألست بربكم قالوا: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾[4].

فالحرية تأتي عبر التفكر والتدبر والعقل والعلم، لذا فإن الـ«لا» في القرآن تنفي العقل والعلم عن الكافرين والمشركين، وتحث عليهما المؤمنين، والـ«لا» الجاهلة ليست مقياساً للحرية، بل السؤال المستمر هو سبيل التحرر، لتتجدد الإجابات، ويستمر تدفق نهر المعرفة، عبر «اقرأ».

ونقرأ ﴿أَفَلَا﴾ بياناً للسنن والآيات، وتذكيراً بالنعم وبالمعجزات، وتعجباً من الإعراض، وإشارة إلى البينات. والسؤال كان يستدعي الوحي.. والجدل كان مناسبة للتنزيل، والشكوى تستدعي الرحمة، وتبين الحدود.

والسؤال مصدر فهم الوحي، وآلة الاجتهاد، ونقيض الاستبداد الذي تخرس فيه الألسنة وتصبح الطاعة عمياء وخرساء.

موسى سأل الله: أرني أنظر إليك، وقَبِل الله منه السؤال، وأوضح الاستحالة، ثم ضرب للعقل المثال: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ

(٣) «سورة الأعراف،» الآية ١٢.

(٤) «سورة الأعراف،» الآية ١٧٢.

فَسَوْفَ تَرَىٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5].

إبراهيم سأل: كيف تحيي الموتى؟ ورد الله على السؤال بسؤال: أولم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي. فكانت التجربة برهاناً... عين اليقين.

وسؤال الله للعبد لوم وتذكرة: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾... و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ﴾[6] رحمة ونداء.

ويوم القيامة لا تنتفي حرية السؤال، ولا تخرس الألسنة... بل تخشع الأصوات: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۞ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[7].

ما لنا لا نرى رجالاً كنا نظنهم؟

فالحرية ليس مناطها اللسان يتفوه بـ«لا» فقط، بل مناطها عقل يطلق أسئلة مجنحة، وقلب يقينه مسكون بأسئلة متجددة تشحذ الإيمان، لذا كان الفقيه أشد على الشيطان من ألف عابد. ولأن الله لا إله إلا هو فلا فضل لعبد على آخر إلا بالتقوى، ولأن التقوى محلها القلب، ولا يعلم الغيب إلا الله، فالشهادة مسؤولية ومحاسبة، وقسط وسواسية، وطاعة لا تقترن بمعصية، وتقويم نحو الاستقامة، توحيد الإنسان لله تحرر من عبودية ما سواه، وبها تُنطق «لا» في وجه الظلم، والذي يكذب بالدين هو من ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[8]. الخلافة في

---

(٥) «سورة الأعراف،» الآية ١٤٣.

(٦) «سورة الانفطار،» الآية ٦.

(٧) «سورة طه،» الآيتان ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٨) «سورة الماعون،» الآية ٣.

الكون نهي عن المنكر وأمر بالمعروف، هي «لا» ضد البغي، و«لا» ضد الغلو، و«لا» ضد العدوان، و«لا» باللسان وبالفعل، والحركة من أجل التغيير، وآيات «قل لا . .» في القرآن تحمل في قلبها حرية، وخطاب الله للمؤمنين: «لا تكونوا كـ . .» يحمل في قلبه حرية، وسؤال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾[9] يحمل رسالة حرية سياجها: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[10]، فـ . . . ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[11].

---

(٩) «سورة النساء،» الآية ٧٥.

(١٠) «سورة البقرة،» الآية ١٩٠.

(١١) «سورة آل عمران،» الآية ١٠٢.

مدارات

هذا الإسلام الذي هو إثبات للتوحيد بنفي الشرك يحمل الإنسان إلى مدارات العبادة.

تأمل في صورة الحجيج يطوفون حول الكعبة، هذا الدوران الذي نجده في حركة القمر حول الأرض وحركة الكواكب حول الشمس وطواف الملائكة حول العرش، كدوائر الماء حين يركد فنلقي فيه حجر الوعي، وكانتظام شذرات الحديد حول المغناطيس.

هي دوائر الكون والوجود... ومدارات حب الله... ومآلات الروح.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾[1] أتأمل في مسارات الناس في دروب الحياة، بعضها يتوازى وبعضها يتقاطع وبعضها يفترق، لا يبقى أمر على حاله، ومن يبدأ مسيرته لا يعرف مآله، وأقدار الله نافذة، وحكمته قد تكون جلية وقد تبقى خفية، العقل آلة والجسد دابة، والروح من أمر ربي.

(١) «سورة العلق،» الآية ٨.

نجتهد، ونسعى، نختلف ونجتمع... وفي نهاية المسير خواتيم نسأل الله أن يحسنها ويستر.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾(٢).

وتأمل في مدار اليوم، نستيقظ ونتحرك ونسكن وننام بين موت أصغر وآخر... نحيا، وحين تأتي لحظة الموت تغادر الروح الجسد وتكمل مسيرتها في دروب الوجود... ويرجع الجسد إلى التراب لحين البعث.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣).

وتأمل في مسار الكلمات، تخرج من أفواهنا أو تخطها أقلامنا فتجد لها مسارات لا نعلمها، قد تصيب في مقتل، وقد تحيي قلباً مواتاً، قد تكون بذرة تبقى في جوف أرض جدباء فيأتي غيث في زمن آت فيسقي الأرض ويحييها، وقد تنبت في زمننا فنراها قد أزهرت وأورقت، هناك كلمات نطلقها كالفراشات لا ندري أين ستحط، وأُخر نطلقها كرصاصات في صدر عدو... وقد يغدو بعضها من دون قصد: نيراناً صديقة... تصيب الأحبة.

يقول الحكماء: الصمت فضيلة، لأنك إن كتمت الكلمة ملكتها وإن أطلقتها ملكتك، وفي مواقف قد يكون: الساكت عن

---

(٢) «سورة الرعد،» الآية ٨.

(٣) «سورة الزمر،» الآية ٤٢.

الحق شيطاناً أخرس، وإن من يكتم الكلمة الطيبة فقد ظلم.

والكلمات سر الخلق، وكما يقول أهل الحكمة: السر بين الكاف... والنون. كن... فيكون. وللكلمة حياة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾[4]، والشريعة في جوهرها هي كلمة توحيد وهي كلمة التقوى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾[5]، المسيح كلمة الله، والقرآن كلمة الله، والوعد كلمته، والوعيد كلمته، والكلمة قد تكون صدقة، وقد يقول المرء كلمة لا يلقي لها بالاً فيهوي بها في النار سبعين خريفاً: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[6].

وتأمل في مدارات الأفعال، ننسى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[7]، أعمال تبقى بعد أن يموت صاحبها صدقة جارية، وأفعال تقتل صاحبها وهو حي، افعل ما شئت كما تدين تُدان.

ولا إيمان من دون عمل: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وهناك أعمال يضاعف الله أجرها، وعباد يرحمهم الله بالتوبة فيكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، وآخرون يصدق عليهم قوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[8].

وتأمل في الثقافات والمجتمعات، دورة نشأة وارتقاء ثم

---

(٤) «سورة إبراهيم،» الآية ٢٤.

(٥) «سورة الفتح،» الآية ٢٦.

(٦) «سورة فاطر،» الآية ١٠.

(٧) «سورة مريم،» الآية ٦٤.

(٨) «سورة الفرقان،» الآية ٢٣.

اضمحلال يقود إلى الضعف والضمور، سنن ومدارات، واستبدال. وقد نظر ابن خلدون في تلك الدورات، وقارنها علي شريعتي، لكن الطغاة يظنون أن السنن يمكن أن تحابيهم، أو أنهم ﴿قَادِرُونَ عَلَيْهَآ﴾[9]، فتدور عليهم الدائرة: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[10].

وتأمل في دورة الطبيعة، فصول تتبدل، مواسم وظواهر، اصفرار واخضرار، إشراق وغيوم، تدور دورة الزمن، لكن التاريخ لا يعيد نفسه، بل نحن الذين نكرر أخطاءنا، الكون من حولنا يسبح ونحن نسير في مدار الغفلة والغرور.

وتمضي الحياة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

---

(٩) «سورة يونس،» الآية ٢٤.

(١٠) «سورة الحج،» الآية ٤١.

وجوه...

أنظر في مرآتك... ماذا ترى؟

وجهك.

تلك الملامح لم نخترها، لا اللون ولا دقائق الصورة التي أمامنا.

لا يسألك الله عن تلك الصورة... عن وجهك...

بل يسألك عن وجهتك.

تأمل في حياتك جيداً

ما هي وجهتك؟

هل هي وجه الله؟

هل أفعالك هي ابتغاء وجهه ليسبغ على وجهك... من نوره؟

هل واجهت الحياة بهذا الوجه قاصداً ربك وشمرت ليوم: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[1].

---

(١) «سورة القصص،» الآية ٨٨.

﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾[2].

تعريف الإسلام: أن تكون الوجهة لله... وحده.

﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[3].

يقول الله تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾[4]، ويقول: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾[5].

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾[6].

ويقابله في الخطاب القرآني: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[7].

وكي يستقيم الوجه لله يحتاج إلى قِبلة: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ﴾[8].

ومن أعرض عن الله.. فرق الله عليه الوجهة والشمل فلم يدر أين يوجهه...

وينشد الناس لوجوههم عادة... الوجاهة.

(٢) «سورة آل عمران،» الآية ١٠٦.

(٣) «سورة الأنعام،» الآية ٧٩.

(٤) «سورة الروم،» الآية ٣٠.

(٥) «سورة الروم،» الآية ٤٣.

(٦) «سورة النساء،» الآية ١٢٥.

(٧) «سورة الملك،» الآية ٢٢.

(٨) «سورة البقرة،» الآية ١٤٤.

وقد تكون عند الناس وجيهاً... لكن الأهم أن تكون كذلك عند الله، وأن تكون وجيهاً في الدنيا... والآخرة: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾(٩).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾(١٠)...

والوجه مرآة الروح..

الروح العالية تسع الناس ببسط الوجه.. وحسن الخلق.

والوجه أيضاً مرآة العمر

تبدأ خيوط الزمن وآثاره في التسلل له من دون أن ندري.

تأمل في صورك صغيراً، كانت وجوهنا ناضرة... واليوم اختلفنا كثيراً عن الأمس البعيد.

وتأمل ثانية في مرآتك... أترى كيف تركت الأيام بصماتها على وجهك؟

بين وجهك والزمن... علاقة وثيقة.

ولأننا نأبى إلا أن نهزم الزمن... نغير وجوهنا.

في بعض بلداننا وفي بلدان كثيرة ينفق الناس المليارات على تجميل الوجه... رجالاً ونساء.

---

(٩) «سورة آل عمران،» الآية ٤٥.

(١٠) «سورة الأحزاب،» الآية ٦٩.

لكن إنفاق الوقت والمال على تجميل النفس... قليل.

«يريد ابن آدم أن يبقى وجهه ناعماً طول العمر، ويعد الله من يسلم وجهه له أن يرزقه في الآخرة وجوهاً ناعمة.. نضرة.. ليس بينها وبين ربها حجاب»..

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(١١)..

انظر في وجوه الناس ترى اختلافاً هو آية الله في الخلق، وانظر كيف يحب الناس أن تظهر وجوههم ويعرفها القاصي والداني.

الإعلام الحديث جعل الوجه ملصقاً على إعلان، وملتصقاً بشاشة الشهرة والسلطة.

صار تجميل الوجه فناً... تجميل وجه البشر... أو تجميل وجه الأنظمة.

وعلى الرغم من أنك: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾(١٢).. لكنهم يتجملون وتتلون وجوههم على القنوات وفي المنتديات، يلبسون الحق بالباطل ويكذبون... يريقون ماء وجههم في الخفاء طلباً وطمعاً وصَغَاراً، ويستعلون على العباد في العلن... استكباراً...

على بريدي الإلكتروني جاءتني رسالة تحمل عنوان «وجوه الشهداء»... هي مجموعة من صور لوجوه شهداء في مناطق جهاد مختلفة، عيونهم مسبلة... ووجوههم باسمة.

---

(١١) «سورة القيامة،» الآيتان ٢٢ ـ ٢٣.

(١٢) «سورة الحج،» الآية ٧٢.

تركوا الصور وراءهم وطارت أرواحهم شوقاً إلى وجه الله...

قالوا قديماً إن من الأدب أن تدير وجهك كله كاملاً لمن يكلمك، فهذا يعكس الانتباه والاحترام.

وقالوا في وصف شيم الكرام إن الرجل الحق لا يخشى من المواجهة: وجهاً لوجه، وأن المجاهد الحق من يقبل على العدو.

ويلاحق العار من يُقتل في الحرب وقد أدبر... نشد الفرار يوم الزحف، ولم يواجه.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾(١٣).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۞ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(١٤).

وحين يخالف التوجه ظاهر ما يدعيه الوجه فذلك هو النفاق...

وجوه البراءة هي وجوه الأطفال، تلك الوجوه التي لا تعرف المداراة، فإن حاولت فشلت، وإن تجملت بدت مضحكة ساذجة.

---

(١٣) «سورة الأحزاب،» الآية ١٥.

(١٤) «سورة الأنفال،» الآيتان ١٥ ـ ١٦.

ويقال «وجوه القوم» أي وجهاؤهم، قد يكونون من أهل العلم والعمل، وقد يكونون المتصدرين للمجالس والرابضين على الكراسي والمناصب الذين يحبون الظهور ويركبون الظهور، لكن رُب أشعث أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره... أسلم وجهه لله...

ولا تستوي يوم القيامة الوجوه...

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١٥]...

انظر ثانية إلى المرآة... وحاسب نفسك قبل أن تحاسب، انظر في عينك جيداً وجهاً لوجه... وتذكر مسارك وانتبه إلى مسيرك واستشرف مصيرك.

واجه وجهك... وراجع وجهتك: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ﴾[١٦].

---

(١٥) «سورة يونس،» الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

(١٦) «سورة الكهف،» الآية ٢٨.

لغة الكون.. ووعي الوجود

أنصت لصوت النفس. . .

لنبض القلب. . .

لسكون الروح.

أنصت. . واصغ السمع، فنحن نعيش في عالم أفقدنا القدرة على سماع لغة الكون. . والذات، وما حولنا من عوالم مختلفة.

ورمضان فرصة للصمت. . . والتدبر. . . والإنصات.

أفقدنا العصر الحديث مهارات ولغات كان الإنسان يجيدها، وأورثنا الافتتان بالعقل، والتبعية للآلة، والخضوع لثقافة الشاشات والانبهار والولع بالصور.

تجوّل في غابة تتساقط أوراقها أو حديقة تنبت أزهارها وأنصت، ستسمع الكون يتحدث لغة الفصول، وانظر لمن يتكلم بلسان لا تفهمه لبضع دقائق؛ لتكتشف أن المعنى الأعمق يتجلى لك: جهلك والاختلاف، لكنك لا شك ستفك شيفرة النظرات والإيماءات، والعاطفة، والمشاعر، وسيصلك شيء ما. . . عبر المسافة. . . يستشعره القلب.

أتجول بين القارات... وأقابل بشراً من ألوان وثقافات شتى، لكني أرى وراء أستار الثقافة وجدران التمايز: الإنسانية المشتركة، وأستشعرها... وأحسها.

في تركيا قابلت ناشطاً يسارياً في مؤتمر الشرق الذي انعقد لمناهضة الهجمة الأمريكية على المنطقة، واجتمع فيه إسلاميون وقوميون ويساريون، جلس بيننا أخ تركي يتحدث العربية بلكنة سورية، وأخذ يترجم، فهمت الكلام لكن ما لفتتني هي العاطفة... كانت تتدفق لتعبر حاجز اللغة بسلاسة حتى شعرت أنني فهمت من دون أحرف أو كلمات: صدقه ومناصرته لأهل العراق... وفلسطين.

وفي لقاء آخر جمع أصحاب الأديان من ثقافات شتى ألقى فيه كل واحد كلمة أو ردد أمام الجمع صلاة ودعاء، كان أكثر ما هزني صلاة زعيم من الهنود الحمر، كان ضخم الحجم لافت الملامح، كأنما الوجه منحوت من صخر الجبال، وقف وبدأ في الصلاة، بدأ يناجي، ثم أخذ يسبح الله بصوت جهوري كأنما يقف فوق جبل يريد أن يصل صوته للأرجاء ويهز الحجر. هذا نداء الإنسان لربه... وتلك حكمة الله في التنوع.

في السفر ـ كما في الوطن ـ يستوقفني مشهد التنوع.

في الوطن ـ مصر المحروسة ـ هناك تنوع بين الريف والحضر، الدلتا والصعيد وسيناء والنوبة، والغنى والفقر، واختلاف في الدين ومذاهب السياسة... والعرق والثقافة.

وفي دوائر البشرية أناس يوحدهم الهم والمصير، وإنها لمأساة أن يرى البعض أنهم لا يجمعهم سوى اللحظة الراهنة أو

يزعم فريق أن ما يجمعهم ليس الفطرة، بل الصدفة البحتة... أو يذكي فريق ثالث صراع حضارات نحن فيه إما الضحية أو الجلاد... لا أفق سوى الصراع... وليس كما نجد في القرآن أن هذا التراوح الحكيم بين التعارف أصل.. والتدافع عدل وإصلاح.

الكل بشر، والعالمية في الإسلام التي تتأسس على الإنسانية الجامعة تمتزج بملامح الخصوصية لكل حضارة، بل كل شعب، وتظل للأمة روح وللثقافة نكهة، تطبع الناس بسمت يصعب أن تخطئه، وتفلح بروح العيش المشترك وعبق تفاصيل الحياة اليومية في أن تعبر الخلافات الدينية والعرقية داخل الوطن مثلما تفلح العقيدة في العبور بالرابطة الإيمانية فوق حواجز وحدود المكان والزمن.. بل وتنتج فقه المكان، ومذاهب الوجدان.

التجوال في أرض الله الواسعة يعلمنا أن العالم واسع وآفاقه رحبة.. وأمانته ثقيلة.

فهل نفلح في سماع تسبيح الطبيعة، ونستمتع على الرغم من الكدح والنَصَب بزقزقة العصافير، وندى الفجر، وضحك الأطفال، وألوان الشجر، وسلام الصحراء، وزرقة البحر والسماء؟

هل نحتفي بالتنوع، وندرك أن الإكراه على الرأي أو العقيدة أو الضيق بالخلاف والاختلاف مناقض لمقصود الخالق من الخلق؟ هل نستشعر إنسانيتنا ونطلق طاقة الرحمة من الأسر بدلاً من هذا الغلّ الذي في صدور حتى المؤمنين؟

الانخراط في نضالات مشروعة من أجل الحق والعدل

يجب أن لا ينسينا قيم العفو والفضل، والحروب التي نخوضها بشجاعة يجب أن لا تنسينا أن غايتنا هي السلام، والرباط على الثغور يجب أن لا ينسينا البناء والنماء والعطاء... واختلاف الرأي والمذهب بل والدين يجب أن لا ينسينا مكارم الأخلاق وأدب الكلمة الطيبة... وفن القول اللين، ومهارات «ادفع بالتي هي أحسن».

ولا ننسى مهارات «إن لنفسك عليك حقّاً»..

فما هو حق النفس؟

حقها أن تعي ذاتها، ومكانها، وزمانها، وتؤمن.. وتستقيم، تعرف... وتلزم.

وما حق الناس؟

الكرامة.. والعدل.. والإحسان.

وما حق الكون؟

أن ندور في مدارات السنن ونحقق عمارة الأرض ونأمر بالمعروف وننهى عن الفحشاء والمنكر والبغي.. ونعطي ما حولنا ومن حولنا احتراماً أكبر ورعاية أكثر، بل ونحب الكون والجماد، كما كان الرسول (ﷺ) يحب مكة.. وأُحُد.

وحين نتحدث لغة الكون... ونفهم منطق السنن في الأنفس والآفاق... سيسكن القلب، ويتفكر العقل، ويتناغم الجسد، ويتحقق معنى الوجود.

نعم... مآسينا كثيرة ومشكلات أمتنا مزمنة، والأمر ليس قضية تفاؤل أو روح أمل، بل ببساطة التحدي الذي نواجهه

كبشر دوماً هو كيف نحتفظ بإنسانيتنا... على الرغم من كل شيء، ونعيش الحياة بفطرة سوية... وإيمان وعرفان وعنفوان...

ورمضان مناسبة لإيقاظ الوعي بترك الشهوات، وصفاء الروح بطول العبادة، وجلاء الذهن بالاعتكاف للتدبر في كتاب الله.

إنه موسم الأوبة والتوبة... ومواجهة الذات بعد أن تُسلسل الشياطين... ويخضع هوى النفس لما يحبه الله ورسوله (ﷺ)... وبذل المعروف والتنافس في الطاعة.

إنه استراحة فؤاد... ورحمة ومغفرة وعتق من النار، وليلة قدر خير من ألف شهر...

من قراءة الكتب إلى قراءة الكون

تداولنا ونحن في مطلع العمر قوائم كتب عديدة ينبغي على الداعية إلى الله أن يتزود بمعارفها، ويتعلم قواعد الدعوة منها، سواء في المجالات الشرعية أم الثقافة الإسلامية العامة، بالطبع تضمنت تلك القوائم بعضاً من كتب التاريخ، وموسوعات جغرافيا العالم الإسلامي، وبعض كتب الأدب والشعر الإسلامي.

لكن أحداً لم يرشدنا لتعلم اللغات، أو إجادة فن من فنون الحياة التطبيقية، أو الاطلاع على كتب أهل العقائد الأخرى، والفلسفات المعاصرة.

كان الاهتمام باللغة العربية يجُبُّ ما سواه، وملأنا الرؤوس بالمعارف والمعلومات، لكن افتقرنا إلى مهارات الذكاء الاجتماعي والنفسي والعاطفي، ولم نشتبك مع مقولات الآخرين، إلا عبر كتبنا نحن، نرد عليهم نقطة بنقطة، وحجة بحجة، من دون أن نتعلم فقه الجدل ذاته، وأدب الحوار وجهاً لوجه... ونتدرب على الصبر والحكمة.

وأحسب أن من أهم جوانب ثقافة الداعية أن يكون في

المقام الأول رحّالة، فمسيرته في الدعوة هي رحلة يقطعها في الحياة، بين نقطة الميلاد ومآل الموت، لكن الرحلة يجب ألا تكون مُقاماً للدعوة في المكان ذاته، يتوالى عليها الزمن من دون أن تتبدل، بل أمرنا الله بالسير والنظر، وجعل لنا في السفر رخصاً في العبادات، منَّة ورحمة منه، وأوصانا بالعباد والبلاد والأمكنة، وأورثنا الخلافة مسؤولية وأمانة.

فالسفر مدرسة الدعاة؛ لأنه يعينهم على مشاهدة آيات الله، من اختلاف الألسنة والألوان، والعادات والطباع، والمجتمعات والثقافات، ويعلمهم التواضع، والإنصات، والتأمل، ويربطهم بالطبيعة، ويُربيهم على التوكل على الرزاق اللطيف، ويُشعرهم بالأمن في جنب الله، لا في كنف العشيرة، وحماية ذوي القربى، ثم هو مسافة ينظرون من بعدها في علاقاتهم مع الأهل والولد، ويعودون وقد تعرفوا على ذواتهم أكثر، قبل أن يكونوا قد تعرفوا على العالم الواسع المحيط بهم.

حملتني أقدار الله إلى بلاد شتى، من أقصى شرق الأرض إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، فتعلمتُ أن اللغة الأم للبشر كافة هي بسط الوجه، ابتسامة صادقة، وبِشر، يفتح لك القلوب الموصدة، وإن جهلت اللغة فلك في الإشارة البسيطة والحركة الرفيقة سبيل.

وتعلمتُ أن الناس يتشاركون الهموم نفسها فتجمعهم على اختلاف ألوانهم ومشاربهم، والفقر في كل البلاد واحد يُذل النفوس ويَكسر الهمم، والمرض واحد يؤلم الجسد ويستدعي الرفق والرحمة، والميلاد واحد مصدر للبشرى ومدعاة للاحتفال بقدوم الوافد إلى عالمنا، والموت واحد فراق وحزن وأسى.

تعلمتُ أن الناس أسرى ثقافاتهم، ونستطيع أن نردهم إلى الفطرة لو فهمنا مفاتيح كل ثقافة لنرتب عليها أولويات الدعوة، وقد رأيت كيف اختلت الأولويات لدى إخوة من الدعاة، فصدوا عن سبيل الله، بدلاً من أن يكونوا أئمة يهتدي بهم الناس.

تعلمتُ أن المرأة في كل المجتمعات تعاني مظالم تتشابه في كثير منها، وأن مهمتنا هي أن نرد الناس إلى فطرة التراحم والمودة، لا أن نطالبهم بما لا يُطيقون، ونحمّلهم أموراً تحكمها عاداتنا نحن فقط، ما أنزل الله بها من سلطان.

تعلمتُ أن الأقليات كلها تلجأ إلى الحيلة، فالتقيَّة ليست سِمة مذهب، بل هي شرط البقاء للأقليات، وتبقى مسؤولية الأغلبية الإنصاف والقسط والعطف والتراحم.

تعلمتُ أن سنن الله لا تحابي أحداً، وأن عواقب من قبلنا تتزامن مع واقعنا، فهي ليست أموراً من الماضي، بل العاقبة هي المآل، وأن مآلات أقوام سبقونا على دروب شتى أولى بالانتباه؛ كي لا نسير على الطريق نفسه فنزِلّ، أو نتخذ سبيلاً غير سبيل الهدى مخالفة وكبراً فنضل، فالحق وسط، وأمتنا أمة الاستقامة، لا الغلو ولا التفريط، وتبني منهجها على ميزان الفرقان، لا على محض مخالفة الآخرين، وقد تتقاطع دوائر، لكن يظلّ المشرب والمقصد للمسلم هو التوحيد، واحترام إنسانية البشر كما أمر الله، على الرغم من أنفنا... وأنفَتِنا.

تعلمتُ أن هناك قارات كاملة لا تعرف عن المسلمين والإسلام إلا القليل، ولَعُنا بالغرب أنسانا الشرق، وقدرتنا على زيارة الشمال شغلتنا عن الجنوب، فكنا كما وصف الله في سورة

عَبَسَ، سعينا إلى من أعرض، وبغى، وناصبَنا العداء، وأعرضنا عمن يشاركنا المعاناة والمظلمة، ويشاطرنا الهموم والتطلّعات، ويواجه التحديات نفسها، ويرافقنا على سبيل التحرر والنهضة، وإن اختلفت الرؤى والمذاهب.

تعلمتُ أن الفرد قد ينوب عن أمة، وأن الانطباعات الأولى قد تدوم، وأن كل حركة في الغربة تُحسب عليك أو لك، وأن المسلم بالبر والفضل أولى.. وهو لهما أهلٌ.

تعلمتُ دروساً لم أجدها في الكتب، وفهمت أموراً - في كتاب الله وهدي نبيّه - لم أسمعها في المساجد، ولم يذكرها لي شيخ أو إمام.

سيروا وانظروا...

وتأملوا وتدبروا...

وكونوا عباد الله في أرض الله... تعيشون أيام الله.

فما من موضع يسجُد فيه العبد إلا شهد له يوم القيامة، وما من أرض قطعها، لا يبتغي إلا الشهادة على العالمين، بخلق المسلم، وهدي الذكر والسنة، إلا رزقه الله بكل شبر فيها الأجر والثواب.

الكون كتاب مفتوح، ينتظر من يقرأ سطوره...

فَسِرْ وانظر... واقرأ..!

رمضان: وجودية المعاني... ومعاني الوجود

حياتنا مجموعة من المفاهيم والمعاني، وأفق المعنى يتشكل من انبثاقه في الذهن وتجليه في المعايشة، فالمعنى لا ينفك عن الوجود الذاتي ولا عن المكان والزمن... زمن الذات... وسياق التاريخ.

لا أفهم إذاً كيف يمكن أن يغيب حضور الذات في مساحات المعنى، وكيف يمكن أن يكتب أحد نصاً لا يعكس حالة وجودية أو سياقاً معرفياً أو لحظة تاريخية، اللهم إلا كتاب الله الذي هو وحي مصدره خارج المكان والزمن، وحكمته متجاوزة لهما ومتجلية فيهما في آن واحد، لكن المعنى الذي يستكشفه العقل حين يرتحل بـ «اقرأ» بين الحروف والآيات والسور يبقى اجتهاد العقل وإدراك الفهم..

سيقول قائل لكن المعنى له ثبات في حال الوحي وأقول نعم، ثبات اللغة ومقصود الله وليس ثبات المعنى، لذلك لا تنقضي عجائبه ولا يَخْلُقُ على كثرة الرد، فهو معنى يتموضع في زمنه ومكانه، لكنه يحمل الوجود لحكمة عليّة وفهم مقاصد وسنن كونية ومجتمعية، وينقله العقل والخبرة الإنسانية من زمن إلى آخر

بالتنزيل والاجتهاد. من هنا جدلية العقل والوحي، والمعنى والوجود والزمن، ومن هنا خلود الوحي لأنه يستجيب، وإبداع الخالق في العقل لأنه يسأل ويجيب، ويتجدد ويتفاعل، وهكذا نبني التراث جيلاً بعد جيل بلا انقطاع للخلف عن السلف، وبلا مصادرة للسلف على أفق المعنى واجتهاد العقل للأجيال اللاحقة.

يدفعنا هذا إلى التفكير مجدداً في قضية الذاكرة، ليس فقط ذاكرة الفرد الإنسان في تعامله مع الحوادث والربط بينها، لكن ذاكرة المعنى، كيف سرنا مع مفاهيم ومعانٍ وصحبناها وصحبتنا، بعضها بقي وصمد والآخر سقط منا على الطريق، وكيف استدعينا بعض السواقط وأحييناها، وكيف ننسى وكيف نتذكر المعاني مع خبرة الحياة.

في ذهني ارتباط بين معنى العدل وصورة أبي، هذا الذي لم يكن قارئاً نهماً بل كان رياضياً نشطاً في وقت فراغه، لكنه علمني معاني عظيمة كان يمارسها بدلاً من أن يتكلم عنها، منها معنى العدل، فقد كان حريصاً عليه في تنشئتي غاية الحرص، فلم أعرف «معنى» التمييز بين الذكر والأنثى، بل ربما كان ما عايشته هو تمييز إيجابي لمصلحة الأنثى الطفلة في رعاية وحنو ودفع إلى التفوق ودعم مع الأيام يزيد ولا ينقص. ثقة مخلوطة بالرحمة، ومحبة ممزوجة بالتدريب على الاستقلال والاعتماد على النفس. وفي مشاهداتي له في حركته في الحياة كان ﷺ يجسد مسؤولية الإنسان عن العالم، يهتم بأمر من حوله بإخلاص يصل إلى حد الاندفاع، ويراجع نفسه بعد الغضب فيحنو من دون أن يتردد أو يستكبر. تلك المعاني تعلمتها منه فاختلطت بمفهوم العدل بشكل لا ينفصم ولا ينفك عن الوجود ذاته، وكثيراً ما أجدني أقدم

تعريفات للمفاهيم تعتمد على خبرتي الوجودية بأكثر من المعاني الراقدة في بطون الكتب، فقد أراد الله أن يكون دوري في الحياة تعليم الأجيال الشابة رؤية المفاهيم ماثلة في الأذهان مستمدة من مصادرها وأصولها، وشاخصة للعَيَان متجسدة في العلاقات الواقعية والحياة الاجتماعية والسياسية، وشاء الله أن يكون تخصصي ومجال تدريسي هو عالم الأفكار والنظريات السياسية، وربطها بعالم الوجود ومدارات الذات الإنسانية... والحركات الاجتماعية والأبنية والعلاقات السياسية.

في رمضان تغيير لطبائع الاستهلاك... لكنه أيضاً زمن متجدد لترويض طبائع الاستبداد، فهو ليس فقط علاقات قوة يمارس فيها حاكم ما استبداده في زمن ما... بل الكارثة في تحول العلاقة الظاهرة إلى علاقة مستبطنة تخترق طبقات الوعي والوجود ليسكن الخنوع في القلوب فيستمر الاستبداد: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾[1] مقابل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[2]، والفتنة والأزمة هي في الدنيا التي تسكن النفس فتسلم قيادها للاستهلاك ثم لا تنهض من ركونها إليه إلى استغناء يورث عزة ويتيح الخروج من ربقة الذل والهوان والرؤية المادية للعالم التي تستبد بالبشر فيقبلون بالأدنى ويتركون ما هو خير وأبقى... فيصبح قبولهم للاستبداد أسهل؛ لذا ليس غريباً اقتران الإمبريالية الاستعمارية (القديم والجديد) بالرأسمالية والاستهلاكية. من هنا فإن المعاني تظهر في حركة الوجود سلباً أو إيجاباً، وتنساب مع السلوك فعلاً أو تركاً،

(١) «سورة البقرة،» الآية ٩٣.

(٢) «سورة الحجرات،» الآية ٧.

وتتحقق في القلوب يقيناً وحقاً... أو التباساً وغيّاً.

في المعاني وجود، وللوجود معانٍ، وتبقى الذاكرة قضية في غاية الأهمية، لأن الوعي الوجودي لا يظل يقظاً طول الوقت، فقد يغفو... بل قد يموت، فيعيش الناس كالأنعام، أو أضلّ: صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ... لذا كان تجدد رمضان كل عام ليذكرنا حين ننسى وينبهنا حين نغفل ويوقظنا حين تغفو أرواحنا... وهو بذلك تكثيف لمعنى الصلاة التي تستلهم إقامتها تلك المعاني لكن التكرار قد يورث الاعتياد... فيأتي الصوم في رمضان كي ينتبه العباد وكي لا ننسى.

وكما ينسى الأفراد قد تنسى الأمم، وكم شاهدنا من فرد تحوّل وعيه باكتشاف معنى، وقد تغفو أمم ثم تستعيد وعيها حين تستيقظ الذاكرة التاريخية... لذا كان رمضان وكان موسم الحج كل عام... تذكرة للأمة.

وظيفة الشعائر الدينية تحقيق الانتباه، وتجدد الوعي، برمزية بالغة العمق، وانسجام وتفاعل مع تفاصيل الحياة.

وفي القرآن وصف دقيق: القلوب تعقل... والأفئدة تفقه.

إنه اكتمال الوجود... باليقين، وبحركة العقل في التاريخ لتحقيق الاستخلاف والبحث الدائب عن الحقيقة. وفي السيرة والسنة معانٍ جليلة في هذا المضمار... لمن كان له قلب أو ألقى السمع... وهو شهيد.

رمضان ليس موسماً بالمعنى الشعبي...

رمضان صحوة معنى ووجود.

والله أعلم

رمضان... الوعي والفعل والمسؤولية

رمضان في جوهره عودة إلى الوعي، واستعادة المؤمن لنفسه من دورة الشواغل اليومية وهيمنة الحسابات المادية، فهو مدرسة للروح... لكنه أيضاً صحوة للعقل؛ حيث يزكي رمضان الوعي بالذات... فيُشرق الفهم.

في تاريخ الدين ـ عبر شرائعه ومناهجه ـ نجد أن طقوس الصوم المختلفة كانت غايتها الوصول إلى صفاء البصيرة والذهن، وترويض الجسد ونوازعه المتنوعة.

لكن صفاء الروح والعقل لا يعني النظر في إصلاح النفس فقط وعدم التفكر في أمور الجماعة وأحوال الأمة، الفارق هو أن ذلك يتم في رمضان تحديداً من موقع رباني وروحي مختلف... ويُمكِّن المرء من النظر بهدوء والتأمل في العمق.

جلست مرة في رمضان أقرأ مقالاً عن المسلمين في الصين وسياسات القمع الحديدية التي تتبعها الدولة الصينية. لماذا نسينا هؤلاء الناس؟ ومتى يقرر الرأي العام الإسلامي أن ينتفض؟ وما الظرف الذي يقرر فيه الرأي العام الإسلامي التخلّي عن تبنّي موقف المثل الشعبي المصري: «أذن من طين وأذن من عجين»؟

ما زلت أذكر أيام الجهاد الأفغاني الأول، كنا نتابع الصحف والإذاعات قبل عصر الفضائيات والنت، نتحرى الأمور ونبذل كل ما نستطيع للشعب الأفغاني ونصرة المجاهدين. في القاهرة كان البعض منهم يأتي في مؤتمرات للتعريف بالقضية في النقابات والجامعات، وكنا نستمع إلى لغتهم العربية فنبكي، ونقرأ أمارات نصر الله فتخشع قلوبنا، وأذكر أنني أجبرت أمي في أيام خلت إجباراً على التبرع بخاتمها الأثير تحت تأثير تكرار آية: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1].

فإن قيل انصرفنا إلى الجهاد في فلسطين فشغلنا عما سواه فإن هذا بالتأكيد غير صحيح، فقد عشنا مع الانتفاضة وكنا مع مأساة البوشناق في البلقان أعواماً مريرة، وتقطعت قلوبنا على اغتصاب النساء والقتل بالجملة والمذابح، وتكرر الأمر في العراق.

لماذا اليوم تتثاقل ردود أفعالنا تجاه ما يحدث في الصين، وغيرها، وما يعانيه المدنيون المسلمون في أفغانستان على يد قوات الناتو. إن قنابلهم تسقط على قرى فقيرة فتقتل النساء والأطفال في أيام أعراس، وتدمر الحرث وتحرق الأرض، ثم تعترف القوات أن هناك خطأ في ضرب المدنيين ومعلومات غير دقيقة عن وجود إرهابيين، تعترف ولا تعتذر أبداً.

لماذا انحصر همنا في فلسطين وكأن العراق مفقود فيه الأمل، على الرغم من أن أحوال العراق لا تنفصل عن تحرير فلسطين، وعلى الرغم من أن الأمة لا تستطيع أن تقاطع

---

(١) «سورة آل عمران،» الآية ٩٢.

المنتجات الصينية وتزايد على مقاطعة المنتجات الدانمركية هي أمة تعاني خللاً في تقدير المصالح والأولويات. . . ولا ترى مآل هيمنة يأجوج ومأجوج على العالم، تلك الهيمنة التي لا تعرف القيم التي عرفها قلب العالم، ظاهرها قيم الانسجام وباطنها قبضة شرسة لدولة تتحكم في المجتمع وتسحق إنسانيته وتدير سوق عمل كبرى تغرق العالم بمنتجاتها وتسير بخطى حثيثة إلى تصدر النظام الدولي.

نسينا في خضمّ متابعة محاولات السلطة الفلسطينية أن نذكر أخوتنا في كشمير، ولم نستطع نحن أن ندفع بحلول سلمية للحكم الذاتي تحفظ لهم بقاءهم من دون أن تخلق كياناً جديداً هشّاً، على الرغم من أن لدينا من أدوات الضغط الكثير وخاصة في دول الخليج العربي، لكن الأولويات مختلفة والقِبلة ليست هناك ـ لا قبلة السياسية ولا قبلة القلوب.

ويشعر المرء أحياناً أن الأمر تديره آلة الإعلام، والمسألة لها علاقة بتوجهنا إلى الشمال، نتابع أقليات المسلمين في الغرب ولا ندري شيئاً عن أقلياتهم في الجنوب والشرق.

رؤيتنا للأمة التي ينبغي أن نبصرها كرقعة واحدة تفتتت وتقسمت بل وتشرذمت، نبحث عن السياحة في بلاد الشمال، أو يهرول بعض الذين يظلمون أنفسهم إلى أسواق المتعة في الشرق، ولكن أحداً لا يضع قائمة بالدول ذات الأقليات الإسلامية فيقصدها ليشد من أزرهم ويتابع أحوالهم، في بلغاريا أو حتى في جنوب أفريقيا، وقليل هم من يذهبون إلى دول الأغلبية الإسلامية في الشمال الشرقي. . . هناك حيث طشقند وأخواتها.

في شهر الصوم كما في الحج يتجدد الشعور بمعنى الأمة، لذا نحتاج إلى أن نستشعر مسؤوليتنا تجاه كل ركن فيها، ونتابع أخبارها وأحوالها بدلاً من متابعة أخبار الطلاق والجنون والموت في دوائر هوليوود التي يهتم بها معظم جرائد العرب.

ما يتجدد في رمضان أيضاً هو هَمّ الإنسانية بمعناها الواسع... فرمضان يربط المؤمن بالكون كله ويجدد صلته بالله رب العالمين، فيشعر بالدور الذي يتحمله تجاه العالم وليس فقط تجاه الأمة، وما أعظمها من أمانة وشهادة.

في دار الإسلام نبسط الموائد وندعو عابر السبيل، فلماذا لا نبسط موائدنا في رمضان في كل بقاع الأرض وندعو الناس إلى طعامنا، قربى لله وتربية للقلوب ورحمة بالخلائق.

رمضان شهر العفو، فلماذا لا نطلق فيه مبادرات التعاون على البر والتقوى والعدالة، وتكون فيه حملات المنظّمات الإسلامية المناهضة للتعذيب والاعتقال وانتهاك حقوق الإنسان.

رمضان شهر الجود، فلماذا لا يطعم المسلمون في شهر صومهم الجوعى في العالم بدلاً من أن يتضاعف الطعام على موائدهم، وغيرهم جائع.

أذكر أنه في زيارة إلى أسرة فقيرة من اللاجئين من جنوب السودان لمصر فاجأني سائق السيارة بسؤال: لماذا تدفعين بالطعام إلى هؤلاء وهم غير مسلمين؟ أليس المسلم أحق بالرحمة؟ وكان ردي: بل الأحق والأجدر بالرحمة بالعالمين هو المسلم... أي إن الرحمة هي رأسمالنا الأكبر ورسالتنا الأسمى لأن رسالتنا تنبني على الرحمة، فكيف لا ننثر تلك الرحمة خيراً

على كل العباد وعلى من انقطعت به السبيل واشتكى شح الزاد!

شهر رمضان شهر التأمل فلنتأمل في حالنا ومساراتنا وأولوياتنا وعطاءاتنا حتى يتجدد معه شعورنا بالأمانة التي نحملها بقدر ما يتجدد وعينا بالذات.

شهر كريم عظيم... الصوم فيه هو لله وهو يجزي به... والله يعطي على الرفق والرحمة ما لا يعطي على غيرهما، فكونوا رحمة للعالمين... وأكثروا من الصلاة على النبي الذي أرسله ربه رحمة للعالمين.

البحث عن الفطرة

كان الخلاف الأساس بين التيارات المختلفة حول أولوية العدل والحرية، وكان السؤال الذي تطرحه الأيديولوجيات على الإسلام هل هو دين عدل أم دين حرية، وكأن الخلاف يستلزم تحديد قيمة مركزية، وكأن الإسلام مطالب بأن يكون محض توصيف أيديولوجي إضافي. فإذا اخترت الحرية فأنت تميل إلى إسلام ليبرالي ديمقراطي وإذا انحزت إلى العدل فأنت تميل إلى رؤية إسلام اشتراكي تقدمي، هذه هي المصطلحات والتصورات التي راجت في دوائر السياسة والخطاب الأكاديمي والفكري.

مع الأيام تكشّفتُ أن الاختيار مضلل، وأنه لا حرية من دون عدل، فأي حرية يملكها من لا يملك قوت يومه، لكن الحرية لا يمكن تأجيلها حتى يتحقق العدل؛ إذ كيف سنحصل على العدل ما لم نمارس الحرية الفردية وننتزع الحريات المدنية من أنظمة تحكم بقانون طوارئ وبعصا غليظة من الترويع والترهيب.

وبالعودة إلى القرآن والسنة نجد أن مدار هذا الدين هو مفهوم الرحمة، وهو معنى يشمل العدل والحرية معاً، ويتأسس

على رد الناس إلى الفطرة، وأن نزاع الأيديولوجيات الذي أقصى واستبعد الرسالة الأخلاقية للفعل الاجتماعي والسياسي بالمعنى العميق قد حرم المجال العام من قوة دفع وطاقة بناءة... وقام بتزوير المقصد وأدّى إلى التباس الغايات.

والمسألة ليست محض أفكار نظرية بل تتجلى في أصول الفقه ونجدها في تفاصيل الحياة اليومية والأفعال الصغيرة الكامنة والمبثوثة في السنة والسيرة النبوية، والتفاوض الاجتماعي المستمر بين التيارات والأعراق والأديان التي تجمع المواطنين كبشر في تفاعلاتهم العادية البسيطة في حياة الرسول (ﷺ) كنموذج نستقي منه رؤيتنا لميزان الاجتماع في التصور الإسلامي.

إذا لم يكن هناك إنصاف بين الناس واحترام للحرية مغلّف بالرحمة وقانون يحكم به من يملك الحكمة قبل أن يقضي ويحكم بين الناس... فلن يكون هناك عدل ولا حرية، فالقوانين وحدها لا تكفل تنظيم المجتمعات، والحريات وحدها لا تحمي الحقوق، والسياسة حين تُنزع منها العاطفة الإيجابية ومعرفة مآلات إدارة القوة على إرادة الناس تغدو لعبة حسابات ومصالح صماء...عمياء..

أما على المستوى الفردي والاجتماعي فالرحمة مفتاح التواصل، والتواضع، والإنصاف، والعفو، والتسامح، والإصلاح وبناء الجسور وإدراك أن الاختلاف سنة والقسط مسؤولية.

من هنا فإن العلاقة الاجتماعية مثل التحالف السياسي مثل القواعد التي تحكم علاقات العمل وموازنات المصالح، يجب أن يتحرك الإنسان في دوائرها باعتباره «إنساناً»، والمنظومة

السياسية والاقتصادية الإسلامية تتأسس على الاحتفاظ بهذا التماسك الإنساني في كل المستويات، وتلك المسؤولية الأخلاقية المباشرة التي لا يمكن تفويضها لتنظيم أو سلطة أو سلطان تفويضاً نهائياً لأن الإنسان في النهاية سيُحاسب: فرداً. نتأمل هذا في حكمة تحريم الربا، والوصية في الإرث، والتواصي بالفضل عند التنازع، والأمر بالعفو عند الخلاف، والتسامح في الديون، وجبر الخواطر عند المصالحة، واعتبار العقد السياسي ليس مجرد عقد إدارة بل عقد «ذمة»... ذمة الله ورسوله (ﷺ).. وذمة المسلمين كجماعة ومجموع، والجنوح إلى السلم.. وهكذا، لذا فإن مفهوم الفطرة الذي اقتصر على البعد الديني في الوعظ يجب أن يتحرر ليغدو من أسس فهم الاجتماع الإنساني، فما يفعله الإسلام هو أنه يحرر الفطرة من قيود اللحظة الضيقة وحساباتها المحدودة ويربط الإنسان بأخيه الإنسان (أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق)، فالفطرة مشترك إنساني رباني ورثناه معاً من نفخة الروح الأولى، واختلاف المصالح والعقائد نعبره بجسر هذه الفطرة السليمة، والتي يمكن أن نؤسس عليها حلفاً أخلاقياً مثل حلف الفضول الذي قال رسول الله (ﷺ) إنه كان سينضم إليه لو أنه عاصره، فحين نؤمن أن الله منح الإنسان الأمانة وهي الحرية، وأن العدل مسؤولية لأنه عماد الحياة الإنسانية، وأن الرحمة هي الميثاق الغليظ الذي يجب أن يحكمنا حتى في لحظات النزاع بل في مواجهات الحرب، فإن حياتنا ستكون بالتأكيد أكثر إنسانية وإسلامية مما هي عليه الآن بكثير.

تلك هي المعاني التي يجب أن تحكم سلوكنا اليومي

وشعورنا الحقيقي تجاه الآخرين ونجدد الوعي بها لتكون هي في جوهرها معيار التعامل الفردي والاجتماعي.

في زمن العولمة يحلو للبعض أن يركز على المساواة التامة بين الناس بما يقلل من شأن الاختلاف والتنوّع، وهذا في تقديرنا غير مفيد، فالمساواة التامة بين الناس تتجلّى في السوق العالمية حين نصبح كلنا مستهلكين، أما المساواة السياسية والاجتماعية فلا تشغل قوى الهيمنة العالمية، لكنّ نضالنا نحن يجب أن يكون من أجل أن يبقى الإنسان في ظل هيمنة منطق القوة واكتساح منظومة الاستهلاك وتصدير الخلافات السياسية لتفكيك الأوطان... ومن أجل أن يبقى الإنسان إنساناً.

منذ سنوات كتبت طالبة من طالباتي بحثاً عن خيانة الولايات المتحدة الأمريكية لمنظومة حقوق الإنسان في غوانتانامو، ووضعت على الصفحة الأولى للبحث صورة السجناء وهم عراة يساقون أمام جندي يمسك السلاح، لم أشعر بالكراهية تجاه الجندي بل أشفقت تماماً عليه، وسألت نفسي كيف استطاع الجيش الأمريكي أن يدمر فطرة جنوده إلى هذا الحد حتى قاموا بما يشين أي إنسان في غوانتانامو وأبي غريب؟. كيف شوهوا فطرتهم إلى هذا الحد؟ لقد خرج سامي الحاج الزميل في قناة الجزيرة من سجنه وعاد إلى وطنه وكتب عمن قَضَوا في غوانتانامو كتباً، تحقق الآن أعلى مبيعات عن خبرتهم في السجن الذي صار مثالاً على إهدار كل الكرامات والمواثيق الدولية لحقوق الإنسان، على يد الدولة التي تزعم تصدير الديمقراطية، لكن من يخرج السجّان من سجنه وقد فقد فطرته السليمة وانحبس في ذات لا تشعر بإنسانيتها؟ لقد عاد

جنود أمريكا من فييتنام ليشكلوا قوة ضد الحرب، وشارك كثيرون منهم في حركات السلام، ومن لم يفلح في استرداد فطرته بقي يعالَج نفسياً لعقود.

صلاح المجتمعات وصلاح السياسة هما في عودة الناس إلى الفطرة... واستعادة قيم العدل والحرية والرحمة، وفي ظل تخلي دول ديمقراطية عريقة كثيرة عن تلك المعاني يبدو أننا ـ على الرغم من كل مشاكلنا وقضايانا المتأزمة ـ قد صار علينا عبء ومسؤولية تحقيق ذلك، ليس لأنفسنا فقط بل للعالم كله، فكيف نبدأ من هنا ونغير واقعنا المؤلم المخزي ثم ننطلق كما فعلت حضارتنا تاريخياً لنكون عنصر إصلاح للحضارة العالمية، هذا هو سؤال المرحلة، وتلك هي الأمانة التي يجب أن نقوم بها من جديد لنكون بحق رحمة للعالمين.

رمضان... ونقطة الماء

الصوم في جانبه الشعائري امتناع عن الطعام والشراب وكل شهوة ظاهرة وباطنة، ثم هو حال للعبد مع الله في تقلب الزمن وتعدّد مستويات الوجود الإنساني بين سعي لترويض الجسد وقيام وهمة لسمو الروح، وذلك في توازن لا يخرج بالإنسان إلى حيز الرهبانية بل يرتقي به في مدارج الربانية.

ونواصل التأمل في رمضان، لنجد أن الحديث عن الجسد والروح غالباً ما يُسقط الركن الثالث، ألا وهو العقل. وقد تأملنا في ما سبق صلة رمضان بالنظر في أحوال الأمة وشجونها وشؤونها، وكيف ومتى تتداعى أجزاؤها لبعضها بعضاً بالنصرة والتعاون، ولماذا تصيبها أحياناً حالة من الوَهَن فتفقد مكانتها بالغفلة.

اليوم أتأمل في أكثر ما يرهق الصائم، وهو فقد الماء. كثير من الناس يصبر على الجوع في نهار رمضان، لكن العطش هو المشكلة الحقيقية، وإذا كان نمط حياته يستلزم السعي والعمل في جو حار فإن المشقة تكون أكبر، وكذلك الأجر بإذن الله.

لكن درس الامتناع عن الشراب ليس فقط امتحاناً للإرادة،

لكنه لفت للمؤمن إلى قيمة ما اعتاده في غير رمضان، وما يؤدي له إلف العادة من عدم شكر النِعم.

ماذا تريد في نهار رمضان أكثر من شربة ماء بارد؟ ننتظر الإفطار فنبدأ أول ما نبدأ عادة بالسوائل، بعض اللبن وبعض التمر... وجرعة ماء تطفئ العطش.

نقطة الماء هي البطل في نهار رمضان، البطل الذي يقول أنا قد أكون تحت قدميك وأمام عينيك فهل قدرت لحظة قد تفقدني فيها كرهاً وليس اختياراً؟ هل وطّنت نفسك على رعايتي كنعمة من نعم الله إن غبت جف الحلق وجفت الأرض ونضب مصدر الحياة؟

للثقافة الإسلامية مع نقطة الماء.. رحلة طويلة.

جلست أقرؤها في كتاب صدر بالإنكليزية للصديقة فرانشيسكا دو شاتيل التي كتبت منذ سنوات مقالاً في الموضوع أهدته إلى موقع «إسلام أون لاين» ثم صدرت رسالتها الجامعية التي درات حول الموضوع في كتاب بعنوان **شيوخ ومياه وسدود**، درست فيه تراث الفقه الإسلامي حول الماء من وجوب الحفاظ عليه في ظل الندرة وفي ظل الوفرة، ولنا في حديث رسول الله (ﷺ) عن النهي عن السَرَف في استخدام الماء ولو كنت تتوضأ للصلاة ولو كنت على نهر جارٍ أسوة، مروراً بصور الماء في القرآن كونه مصدر الخلق إلى أنهار الجنة، وكيف بنى التراث الفقهي تقاليد عريقة وطوّر حقوقاً بشأن الماء كمورد عام، تأسست عليها طرائق التعامل مع مياه الشرب ومياه الري ومياه الصرف في الحواضر الإسلامية، بشكل طبع المدن بسمات

واضحة في كل أنحاء العالم الإسلامي، وهو ما يصلح اليوم أساساً متيناً لمقاومة خصخصة الماء ودعم الحركات الاجتماعية التي تناضل من أجل استعادة الحق في المياه كحق من حقوق المواطنة في مواجهة شبكات دولية من الشركات التي تريد احتكار الماء وتعظيم ربحه على جثث العطشى والجوعى، بما لذلك من تكلفة اجتماعية وسياسية باهظة.

أنظر إلى أهم وأقوى القطاعات التي ركز عليها العدو الصهيوني في التثبيت لكيانه الاستيطاني والتعدي على الوجود الفلسطيني: سرقة المياه الجوفية والهيمنة على موارد المياه الإقليمية ـ في ملف التعاون مع تركيا وفي الصراع مع مصر وفي خطط الاعتداء على الأنهار في الدول المحيطة من لبنان إلى سورية إلى الأردن، لقد طوّر الصهاينة وسائل الري بالتنقيط وبرعوا في الزراعة وتقنيات استغلال المياه ـ والأرض ـ لآخر قطرة وشبر.

وعلى صعيد آخر، الماء أيضاً مورد اقتصادي للأمم لأنه يُعتمد عليه في توليد الطاقة وفي الصناعة، وفي كل ما يتعلق بالحياة.

وليس بجديد أن نؤكد أن الحروب القادمة ستكون حول المياه، وأن الكوارث القادمة ستدور حول ندرتها، افتقاداً للماء. وقد نفد الرصيد الاحتياطي من المياه الجوفية تقريباً في الجزيرة العربية وجفّت الأنهار في الهلال الخصيب شاماً وعراقاً، وهناك نزاعات حوض النيل حول الأنصبة المختلفة في ماء منابعه.

الأخطر أنه مع «الاحترار» العالمي وتغير المناخ ـ بما

كسبت أيدي الرأسمالية بعد ثورتها الصناعية التي دشنت نهضة الغرب لكنها أيضاً دمرت توازن الأرض البيئي ـ ستطغى المياه المالحة على المياه العذبة، فنصف دلتا النيل مهدد بارتفاع منسوب البحر نتيجة ذوبان ثلوج القطب، والمأزق الذي نواجهه متشابه في كل السواحل العربية بما فيها سواحل الخليج الفَرِح بعوائد عاجلة ومغرية لدفن البحر ولا يرى الخطر المحدق به بعد عقود ستمر مر السحاب.

كل هذا وما زالت السياسات البيئية العربية بشأن المياه متعثرة، لا أحد يريد أن يزعج الناس أو يهيج الجماهير، فيتم إخفاء التقارير الدولية في الأدراج أو التعامل معها بخفة أو بقلة دين، ـ فالتوكل الكاذب هو المنطق وليس شكر النعمة بالتخطيط الرشيد لتنميتها، والتوعية لا بسياسات الدولة تجاه الأمر فحسب بل بنشر ثقافة الوعي بالخطر وتغيير العادات التي تستنزف مواردنا المائية كل يوم.

كتبت منذ سنوات في جريدة الدستور المصرية خطتي الشخصية لتوفير المياه من خلال صياغة نموذج طبّقته في بيتي آنذاك بصرامة واضحة: لا إهدار لمياه صالحة للشرب في غير موضع. نستخدم للصرف الصحي المنصرف من مياه الغسالة الأوتوماتيكية التي وضعت بجانبها خزاناً بلاستيكياً متوسط الحجم لادخار الماء الخارج منها المحمل بالصابون وبقايا الغسل، وذلك من خلال دلوٍ صغيرٍ بعد قضاء الحاجة. والمياة شبه الصافية التي تخرج من آخر دورة غسل نستخدمها في تنظيف سلم البناية. بدأ نظام رقابة بين الأولاد لمراقبة الهدر في المياه عند الوضوء أو غسل الأسنان، وكانت الجريمة الكبرى (ووسيلة

الإغاظة) هي صراخ أحد الأطفال أن الآخر ترك الصنبور مفتوحاً أو فتحه على أقصى طاقته من دون داعٍ.

أيضاً هدر الماء في تنظيف الأرضيات في الحمام توقف باستخدام مساحات أرضية بدلاً من الإفراط في سكب الماء، والتنبيه على الأخت التي تساعدنا في المنزل بأن الماء ليس مجانياً (بالمعنى البيئي)، وقد نظرت إلي باستغراب وظنّت في البداية أننا أسرة بخيلة منكبّة على توفير كل مليم من فاتورة المياه، فلما شرحنا لها أن الثمن هو هدر مياه صالحة للشرب في حين لا يصل هذا الماء إلى قرى كثيرة في الريف المصري وأن الحساب عند الله وليس عند الناس على هذا الإسراف بدأت في التكيف مع الثقافة الجديدة بنجاح، ونجحت تلك التجربة المنزلية في رفع الوعي ووقف الهَدر.

وهل ثقافة المجتمعات إلا نتاج ثقافة الأسر والبيوت؟

إن نظرة على خريطة العالم العربي تدل على أننا نواجه فقراً مائياً، حتى أن خبيرة موارد مائية في الخليج قالت في مؤتمر في بيروت حضرتُه حديثاً: خذوا نفطنا وأعطونا ماءً! لقد خذلتنا الأنظمة طويلاً في إدارة السياسة ولم يعد من الممكن قبول فشلها في إدارة الموارد؛ لأننا قايضنا الحرية بالأمن القومي فخسرنا، وقايضنا الكرامة بالسيادة القومية فخسرنا، وقايضنا الديمقراطية بالتنمية فأفلسنا، وليس من العقل الاستمرار في منح الخبراء والحكومات كل هذه الثقة المفرطة... حتى الموت.

وسيجد القارئ أنه في مصر وبلاد المغرب بدأت انتفاضات

العطش بعد أن كانت الاحتجاجات تدور حول الخبز... وسيزداد هذا في الهلال الخصيب قريباً.

نستشعر في رمضان قيمة نقطة المياه ونعمتها، نقرأ مسارها من الخلق إلى القيامة وما بعدها، ونتعلم من السنّة النبوية أدب التعامل معها، واحترام حقوقها. ويجب أن تكون أحد دروس رمضان المهمة هي رفع درجة الوعي بندرة المياه، وأن يكون من العبادة في رمضان أن نقرأ عن سبل الحفاظ عليه وتنوع استخداماته بحسب أنماط العيش المتنوعة في عالمنا العربي الممتد من ماء إلى ماء... من المحيط... إلى الخليج.

بشراً.. رسولاً

لو أن القلم أراد أن يخط كلمة واحدة تعبّر عن أبرز خصال رسول الله محمد بن عبد الله (ﷺ) لكانت تلك الكلمة بلا تردد هي: الرحمة.

رسول تنزَّل عليه وحي هو آخر الكتب، وهو خاتم النبيين الذي أكمل رسالة الإسلام من لدن آدم. ندرس سيرته عادة عبر محطات: اليتم ثم الفتوة الأمينة ثم بلوغ أشده متنزلاً عليه جبريل في الغار بـ«إقرأ»، ثم نقاط التدافع مع ثقافة جاهلية تأبى التوحيد وترفض العدل في المال والشورى في الأمر وأن يكون الناس سواسية، وتتوالى المحن حتى يأذن الله بالهجرة، ثم تأسيس مجتمع المدينة ثم الفتح فحجة الوداع فوفاة النبي (ﷺ).

يبدو تأريخ السيرة أحياناً وكأنه يركز على فلسفة المراحل التاريخية، والنقلات الحاسمة في مسيرة الدعوة، ومع القراءة نفقد أحياناً الخيط وننتقل من تأمل الرسول (ﷺ) وسنّته بين الناس إلى محاولة التركيز على فهم التحديات التي واجهتها الرسالة، وكنا نتبارى صغاراً في حفظ تواريخ الغزوات وأسماء الشهداء وتفاصيل المواجهات بين معسكرَي الكفر والإيمان ثمّ

نصلّي على المصطفى القائد الرسول (ﷺ). وتتوارى بشكل ما بشرية الرسول (ﷺ) في هذا النهج والتي هي مفتاح فهم أبرز ما في رسالته: أنها جاءت رحمة للعالمين، وما كان جهادها وخروجها وتفاعلها مع الواقع إلا تعبيراً عن تلك الرحمة التي جعلها الله الاسم الذي يُفتتح به الفرقان من بين أسمائه الحسنى: «بسم الله الرحمن الرحيم».

في القرآن قصص تحكي سيرة الرسل والأنبياء، نوح (عليه السلام) ركب الفلك وأغرق الماءُ قومَه، يونس (عليه السلام) ذهب مغاضباً فالتقمه الحوت، عزير تساءل كيف يحيي الله القرى فأماته الله مئة عام ثم بعثه، سليمان (عليه السلام) آتاه الله الملك والنبوة، موسى قال لربه أرني أنظر إليك، فلمّا تجلّى ربه للجبل خرَّ صعقاً، إبراهيم (عليه السلام) قال رب أرني كيف تحيي الموتى، عيسى (عليه السلام) آتاه الله آيات إحياء الموتى وإبراء الأبرص، ثم رفعه اليه، أما محمد (ﷺ) فكان من بينهم بشراً... رسولاً، بحث عن الحق في تعبّده في غار ثور، وفزع حين جاءه الوحي فذهب إلى حضن خديجة (رضي الله عنها) يقول زملوني، واتخذ من عبيد مكة ومواليها أصحاباً يبلغهم رسالته جامعاً بين بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي، مساوياً بينهم وبين عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق والعباس (رضي الله عنهم)، وكان قائماً الليل، صائماً النهار، في مهنة أهله ورفيق ذريته، وكان في المحن صابراً وعند تبليغ رسالته في مكة والطائف راحماً غير منتقم، كافلاً علياً بن أبي طالب (رضي الله عنه)، مهاجراً مع الصديق (رضي الله عنه)، مؤاخياً بين المهاجرين والأنصار، مشيِّداً مع أصحابه مسجد المدينة ورفيقاً بنساء الأنصار ومستقبِلاً في ساحة المسجد وفود نجران وغيرها، ومرسلاً رسائله إلى الأباطرة

يدعوهم إلى عبادة الله والرحمة بالعباد، مقاتلاً بغير عدوان شفيقاً بالأطفال ناهياً عن التعرض لهم في الجهاد أو حرق الزرع أو التمثيل بالقتلى، مؤسساً مجتمعاً متعدد القبائل والديانات في المدينة وعاقداً صلح الحديبية ثم فاتحاً مكة برسالة عفو ورحمة، وآخر ما أوصى به أمته يوم عرفة: «استوصوا بالنساء خيراً».

لم يسأل ربه أن يراه كما سأل موسى (ﷺ) فكان جزاؤه سدرة المنتهى، ولم يسأل الله ملكاً فملك قلوب أصحابه فضربوا في الأرض أفراداً وجماعات ينشرون رسالته رحمة بالناس واستنقاذاً للمستضعفين، ولم يتّخذ لنفسه صرحاً بل سكن في غرف صغيرة في المسجد فأحدث تحولاً في ثقافة الجاهلية ليصبح العدل هو معيار القوة والمساواة هي منطلق بناء الأمة، وجاء دستوره في المدينة ليكفل الحقوق، وسار في منهجه على تغيير النفوس باتجاه الرحمة حتى صار عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أرفق الصحابة بالنساء بعد أن كان قد لطم فاطمة بنت الخطاب (رضي الله عنها) قبل إسلامه... هذا الذي كان يضيق بخروج النساء فصارت نساؤه يخرجن إلى المسجد في ظلال حديث: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»، ثم كان هو الذي ردته امرأة إلى حكم الله فقال: «كل الناس أفقه منك يا عمر».

كان محمد (ﷺ) يمشي بين الناس، ويترك أحفاده يتعابثون ويلعبون فوق ظهره وهو يصلي، وكان يذكر خديجة أمام عائشة (رضي الله عنها) بالخير حتى غارت، ويصبر على تنازع زوجاته ويضحك، وأصبح بيته خالياً من الطعام حتى رهن درعه، وكان يسأل عن جاره اليهودي الذي يؤذيه، ويخصف نعله، وأناخ دابته وهو مع أصحابه لأسماء لتركب خلفه رحمة بها من أن تكل بحمل أغراضها من السوق إلى بيتها.

محمد (ﷺ) هو الذي تحمّل تصايح النساء في بيته يسألنه ويستكثرنه في الحقوق، ورحمهن فأفرد لهن يوماً ليتفقهن في الدين خلاف المجلس الجامع - فضلاً وزيادة، وترفقاً بالقوارير، وكان ينام في حجر عائشة (رضي الله عنها)، ولم يرض أن يجمع علي بن أبي طالب زوجة مع فاطمة (رضي الله عنها)، ويدعو أصحابه إلى الطعام في بيت أم سليم، ويسأل أم سلمة (رضي الله عنها) المشورة حين يستعصي عليه أمر أصحابه، ويشيح بوجهه عمن زنت وجاءت تطلب إقامة الحد عليها عساها تنصرف، ويصلي على امرأة كانت تنظف مسجده، ويقف لجنازة يهودي إكراماً للنفس الإنسانية، وكان ينام على وسادة حشوها ليف، ويوصي المؤمنين بالرحمة بأولادهم، ويصبر على الأعراب حين يتجاوزون ويُعرض عن المنافقين حين يتآمرون، ويخاطب أهل الكتاب بالتي هي أحسن حين يجادلون.

محمد (ﷺ) رحمة الله للعالمين.

أزمنة رمضان المتعددة

يستمد الزمن تأثيره من وجودنا فيه ووجوده فينا، مفهوم الزمن المجرد في علم الفيزياء ليس له في داخلنا وجود، بل حتى امتداد الزمن في التاريخ نتواصل معه بمقدار تعريفنا لحضوره فينا ـ ما تركه من آثار وذكريات وحضورنا فيه ـ وما قمنا به من فعل وتأثير.

في القرآن إشارة إلى ربطنا بالأزل، العهد الذي أخذه الله منا بالتوحيد قبل خلقنا هذا، الشهادة الأولى التي نؤدي شهادتنا في هذه الدنيا وفاء بها ولها، ميثاق الفطرة.

وفيه إحالتنا إلى الأبد، القيامة والزمن الأبدي الذي يكون بعد أن يطوي الله السماء كطي السجل للكتب وتختفي حركة الشمس والقمر وينتفي زمننا الذي نقيسه بدورانها ودوران الأرض. ويأتي زمن الأبد، ليتحدث عنه الله بصيغة الآن واليوم.

وبين الأزل والأبد ووجودنا الحاضر الذي يستلزم حضورنا الوجودي... وشهادتنا على الناس بالقسط والعدل نتواصل مع الزمن أيضاً بالذاكرة التي تحتفظ بالمعاني والمشاعر التي اختزنتها اللحظات حتى وإن مضت تلك اللحظات وصارت في

ميزان الغيب، ليبقى الفعل موضوعاً للمحاسبة، ويبقى وجودنا فيها زاداً لمشاعر الغضب، والألم، والحب، والدفء، وغيرها.

سمّى الرسول (ﷺ) الزمن بمن شاركه فيه، قال وهو الأكرم العطوف عن امرأة أجلسها بجواره وألان لها جانبه فتساءلت عائشة (رضي الله عنها) عن ذلك فقال: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة»، في وصف رقيق دقيق، هذا كان زمان خديجة (رضي الله عنها)... فخديجة (رضي الله عنها) كانت هناك فملأت الزمان بحبها والمكان بحضورها، فلما مضت ومضى الزمان، صارت لتلك الأيام، ذكرى وفاء وعطاء وحب ومودة ورحمة، أيام خديجة.

وجود الإنسان يكتمل بالزمن وإحساسه به.

لا يشعر الغائب عن الوعي بالزمن، ولا الميت: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[1]، ولا يشعر المجنون بالزمن، يستوي عنده الأمس واليوم والغد... والليل والنهار... فيسقط التكليف.

ووجود الإنسان وحضوره في اللحظة يقترن بأمل في المستقبل، استشراف زمن آتٍ، يكون فيه حاضراً بحق... وحين يفقد الإنسان هذا الأمل في المقبل من لحظات يستوي عنده الحاضر والماضي، ويعيش كالميت، وحده الأمل في زمن آتٍ ومستقبل أفضل وأكرم يمنح الحياة معنى.

ولكن الزمن ليس ماضياً وحاضراً ومستقبلاً فحسب، ففي الأزمنة المختلفة طبقات من الوعي ودرجات من الوجود لا يستوي من يعيش اللحظة في تجلّيها الأفقي مع من يعيشها

(١) «سورة الكهف،» الآية ١٩.

بدفقات العرفان ومستويات المعنى من وجوده، ولا تستوي لحظة الوجود المادي مع اتساع لحظة الوجد، عشقاً أو عبادة، في الوجدان والعرفان.

ويصعب على الإنسان استحضار مرور الزمن طوال الوقت، وإلا أربكه ذلك، لذا فمن رحمة الله أننا ننسى مرور الزمن فينا ومروره متجاوزاً لنا ومتجاوزين له، وقليل من الناس من يعي قيمته فيستحضر ذلك في كل فعل وحركة، هؤلاء هم النوابغ الذين ينتجون أضعاف ما ينتجه الناس... وقد وعى أهل الدنيا ذلك حتى جعلوا الوقت رأس مال، وسبقهم إلى ذلك أهل الطريق إلى الله حين تحدوا دوران الوقت بالليل والنهار فكانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، تركض وراءهم الأزمنة قدوة وإمامة، لأنهم جعلوا الزمن مطية وساروا إلى الأعلى، وفصلوا بين دورة الزمن فيهم ودورانهم به في مسيرهم إلى الله.

وحين ينسى الإنسان دروس الزمن وسنن التاريخ، لأن قدرة العقل على تحمّل عبء كل ما يحويه الزمن من حلقات الوجود... محدودة، يتنزّل وحي الله من فوق سبع سماوات ليُذكّرنا بما مضى أو غاب.. كي نستلهم العبرة من الزمن ونعيد صياغة زماننا بوجود مختلف، ووجودنا بزمن متجدد.

والسيرة النبوية هي فلسفة للوجود، دروسها عابرة للزمن والمكان، لكنها تتجدّد في كل زمان ومكان، تتجلّى رؤيتنا لها في ثقافات مختلفة، تعيد بناء وعي من يتبعها في الواقع... ليعيد تشكيل عالمه بها استقامة وهُدى.

ولا يختزل المسافات والأزمنة مثل الحب، نستحضر وجود

الرسول (ﷺ) في أيامنا، ونحيي سنته ونحررها من أسر شروط لحظتها الماضية لتصوغ واقعنا وتنهض بمستقبلنا، ونحبه ونصلي عليه، فيراه البعض منا رؤيا حق، لأن الموت ليس فناء في الزمن بل خروج منه، ليتحرر الوجود... من اللحظة... والمادة.

تتعدد الأزمنة وتتزامن في تنوعها، يوم الله ليس كيوم البشر، وفعل بشري يمتد زمنه قد تختزله يد القدرة أو كرامة العلم إلى أقل من زمن ارتداد الطرف... آيات ربانية تفيض على البشرية فتملكها بعض المفاتيح... محبة من الله لعبد صهرته العبادة وقرّبته لحظات القيام بين يدي ربه مصلياً وذاكراً.

ويتماهى الزمن مع المكان فيمضي الزمن ويبقى المكان وهو يحمل بصمات من سبقوا، وأثر من صدَّقُوا... وصَدَقوا، آثار الزمن على الحجر، وشعائر الله على الدروب تحيي الذكرى وتستحضر الحكم من زمن الرسالات إلى أزمنة العبادات حتى يرث الله الأرض.

رمضان زمن رحمة ومغفرة وعتق من النار، عشر ثم عشر ثم عشر... تمسح يد المنان على قلوب العباد تفضلاً ويبسط بكفه الزمان عبر منحه الخيرية، فتكون ليلة في رمضان بألف شهر سلاماً حتى مطلع الفجر....

والمتأمل في رمضان وأحواله يجد أنه ليس زمناً واحداً بل أزمنة متنوعة تجتمع في شهر وصفه الناس بأنه شهر كريم لأنه يعطينا أبعاداً متنوعة نفهم بها مستويات الإنسانية المختلفة فينا.

وأول زمن في رمضان هو زمن المجاهدة، فالصوم مجاهدة

للنفس وترويض للجسد يتجلّى في مسار الحياة اليومية في رمضان بالامتناع عن الطعام والشراب والشهوة، وهذا هو المقصد التربوي الأكبر في رمضان، فنحن لا نصوم كي نشعر بجوع الجائع كما كانوا يقولون لنا ونحن صغار، بل نصوم لأن هذا الجسد يحتاج إلى أن يتعلم كيف يتنازل عما يشتهي ويقف عند حدود دنيا تخفف من ثقله ليسمو، ومن هنا كان الصوم من وسائل التربية الروحية في كل الديانات على تنوع أشكاله. وإن كنا نحتاج كمصريين أن نضيف إلى صوم اللسان عن الطعام والشراب صوم اللسان عن الكلام وهو لون من الصوم نذره الأنبياء تفرغاً للعبادة أو تحرزاً عن الجدل أو انصرافاً عن الناس كما يروي لنا القرآن، ولعله أصعب من الصوم عن الطعام والشراب لكن السلام الذي يورثه في النفس عجيب لأنه يتيح للعين أن ترى وللأذن أن تسمع وللأنف أن يشم وللعقل أن يتأمل مع تخفيض ضوضاء اللسان المزعجة التي تحجب بصخبها فعالية هذه الحواس.

والزمن الثاني في رمضان هو زمن الجماعة، سواء أكانت الجماعة الاجتماعية التي تتحلق حول الإفطار في تجديد للأواصر الأسرية والأخوية، أم تلك التي تصطف لتنصت إلى القرآن في صلاة القيام والتهجد، ففي رمضان يتضح وجود الجماعة الاجتماعية بتلك الصحوة من تبادل الزيارات وصلة الأرحام، ويتضح معنى الجماعة حين يعتاد المرء رؤية وجوه إخوانه (وأخواته) في صفوف الصلاة وتتجلى الرابطة الإيمانية عندما تمتلئ المساجد بالشباب والشيب والنساء والأطفال فتزدان بالذكر والتسبيح... وهؤلاء الركع السجود.

أما الزمن الثالث في رمضان فهو زمن الوحي، هذا الانفراد بكتاب الله شهراً يقرأ المسلم فيه ويستدرك ما فاته حين هجر هذا القرآن في باقي الشهور ولم يوفِّه حقه، يعود المرء إلى كتاب الله مطالعة متأنية ومقارنة متجلية وفهماً ودأباً وتواصلاً من حروف الوحي التي تنثر الهدى وترد الضال وتذكر التقي وتعلم الجاهل وترشد إلى قيم العدل والإحسان، وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي. القرآن له في هذا الشهر الذي أنزله الله فيه مركزية واضحة، يعيد الفرد بناء علاقته به من جديد ويحلق معه في آفاق المعنى قراءة وسماعاً حتى أنه يعيد اكتشاف بعض الآيات وكأنه لم يسمعها أو يقرأها من قبل. هذه الصلة وتلك العلاقة فريدة في رمضان، إنه زمن التلاوة والإقبال على مأدبة الله المعنوية نتذوق المعاني ونتدارس المقاصد.

الزمن الرابع في رمضان هو زمن اللُّحمة الاجتماعية أي الرابطة التي يدور حولها الوجود الإنساني في صلته بالجماعة السياسية، وذلك من خلال أفعال الخير وموائد الرحمة وأفعال الإحسان بالمعنى العميق، فخلافاً للرابطة الأسرية والجيرة، والرابطة الإيمانية والمسجد، هناك الجسور التي يبنيها رمضان بين طبقات الأمة وفئاتها وشرائحها، وهو لحظة لا يسعى فيها الفقير إلى الغني، بل يبحث فيها الغني عن الفقير كي يبره ويكرمه تقرباً إلى الله، وينشط في الوصول إليه كي يحصل فعل الخيرات في هذا الشهر، فلا قيمة لليد التي تعطي إلا لو وجدت من الآخر يداً تأخذ، ومن آداب الصدقة أن تكون يد الفقير هي اليد العليا ويد الذي ينفق هي اليد السفلى... وليس العكس... لأن الصدقة تقع في يد الله، وكما نعلم كان السلف

الصالح يعطر دراهم الصدقة ويجدّ في البحث عن المستحق لها من المتعففين.

في هذا الشهر نتعلم درس التضامن الاجتماعي، ونتشارك بعضاً من الثروة على اختلاف وتنوع الطبقات، ويصبح التكفير عن إفطار يوم للمريض أو صاحب العذر مقترناً بإعانة آخر على صومه وتوفير لقيمات فطره بإطعامه، وهكذا يربط رمضان ما انفك من عُرى التلاحم الطبقي والتواصل بين الناس وتصبح هناك حالة من الذمة المشتركة.

كل هذه الأزمنة وما تحويه من المعاني في رمضان نتقلب فيها في هذا الشهر الذي يريد الله به أن يعلمنا دروساً نستصحبها في باقي شهور السنة، فرمضان ليس استثناءً نعود بعده إلى سباق محموم على الدنيا والاستهلاك ونهجر القيم التي أحياها، بل هو زخات مطر على أرض جدباء نحتاج إلى أن نحفظ ما نبت فيها في هذا الشهر بأن نسقيها تلك المعاني عبر شهور السنة كي لا نخسر تلك الأحوال فنغدو قوماً بوراً. فاللهم ارزقنا ببركة هذا الشهر أدباً معك ومع الخلق في باقي الأزمنة.

واللهم ابسط لنا الزمن حتى نعبدك حق العبادة وبارك لنا في أوقاتنا حتى نكون كما أردتنا، وابسط لنا المكان حتى لا يضيق بنا ولا تضيق علينا الأرض بما رحبت، وابسط يدك بالنهار ليتوب مسيء الليل زمناً آخر، وابسط لنا يدك بالليل ليتوب مسيء النهار، سِتراً آخر، وابسط لنا الطوابق حتى تختفي الحجب، وابسط لنا ظلّك الممدود حتى تظلنا به يوم القيامة، وابسط لنا الصراط، وارزقنا الدرجات العلا من الجنة... وامنن علينا برؤية نور وجهك يوم نلقاك، سبحانك يا من ليس كمثله شيء.

اللهم اجعل أيام رمضان فيضَ رحمةٍ في الأزمنة، واجعل عيدنا رحمة في الأمكنة، ووسع على من ضاقت بهم الأرض بما رحبت أو قيدهم الظلم فحرمهم من مشاركة الزمن مع من يحبون، وانقطع بهم المكان عن الأهل.

يا من بيده ملكوت السموات والأرض... وعنده مفاتِح الغيب.

مدرسة الرحمة

العشر الأوائل في رمضان أيام رحمة، والله حين يصطفي صفة ما لزمن ما فإنه يُعلم العباد أن يتخلقوا بها في هذا الزمن أكثر مما يفعلون في غيره، فالرحمة في رمضان رحمة وزيادة، فقد اختار الله سبحانه لنفسه اسم الرحمن واسم الرحيم في مفتتح القرآن، وأراد أن تكون البسملة التي يبدأ بها المسلم كل أمره تذكرة برحمة مضاعفة.

وقد نزّل الله في الكتاب وعلمنا رسوله الكريم (ﷺ) أن رحمته وسعت كل شيء، وأنه سيكتبها للذين لا يريدون علواً، بل الراحمون الذين يترفقون بالخلائق كلها... وليس بالبشر فحسب، فكان ثواب من رحم الحيوان الجنة، وعقوبة من حبسه النار.

هذه الرحمة هي درس وفيض العشر الأوائل من رمضان، وهي ليست الرحمة كخُلُق فردي فحسب... بل هي أدب للأمة أيضاً.

فرمضان ليس شهر عبادة من أجل نجاة الإنسان وحده يقيس فيه المؤمن فيها نصيبه من الجنة بالشبر والذراع ويعد الحسنات،

بل هو شهر من شهور الأمة كي تتراحم لا بصدقة خفية أو أموال زكية، بل بتحول خلقي وسلوكي شامل وكامل تتربى عليه الأمة في تلك الأيام، بمثلما تتربى على كظم الغيظ وترك الجدل في الحج، لا لتخرج من تلك الأزمنة لغيرها وقد تَخَلَّقت أياماً.. بل لتستصحب الرحمة معها في بقية الأزمنة والأمكنة فترتقي عبادة بعد عبادة وعاماً بعد عام.

والحق أن فهم منهج القرآن يدلنا على أن مقاصد الشرع نابضة في كل ما فرض الله أو ندب من أفعال وأقوال وأحوال، لذا فإن الرحمة التي نتعلمها من رمضان لا تقف عند حدود البر بين الناس على مستوى تكافلي، بل ينبغي أن تمتد إلى السلوك الاجتماعي الأوسع بل والاقتصادي والسياسي الأشمل... فتعيد تلك الأيام ـ من أيام الله ـ تشكيل بنية علاقات القوة وتنقل العلاقات من التناحر المذموم إلى التدافع، ومن التدافع إلى التعارف، ومن التعارف إلى التراحم.

والرحمة باب واسع يحتاج إلى تفصيل، لكن حدودها ليست مائدة للرحمن تقام ولا بعضاً من الزاد يُجاد به، بل هي في قلب القلب من تربية المؤمن وتهذيب الجماعة.

فالرحمة في التصور الإسلامي مساحة رحبة من المناطق العازلة الاجتماعية التي تضمن إنسانية المجتمع، وتتيح الستر وتحض على التوبة ودرء الحد وتدافعه بين المؤمنين. فالتسامح الاجتماعي وتقديم التنازل والعفو المتبادل هو منطق الشريعة التي تعلو بالإنسان، ومن هنا مقولة الرحمة فوق العدل، والأصل فيها أن العدل فوق نَص القانون الجامد، وأن منطق المجتمع ـ حال التعارض ـ فوق منطق الدولة، من دون أن يعني هذا استهانة

بسيادة القانون... لكن كما قيل: يَجِدُّ للناس من الأقضية بقدر ما يحدثون من الفساد..أو بقدر ما ينتقصون من معايير الأخلاق.

ورمضان موسم من مواسم التربية واستعادة الوصايا النبوية.

فهناك جانب مهم للرحمة في السنة النبوية، وهو التسامح في المعاملات، ففي المعاملات التجارية نص الحديث على السماحة في البيع والشراء تقديماً للعلاقة الإنسانية على قيم السوق الشرسة، وتهذيباً لنفس المؤمن من التكالب على درهم أو دينار يزيد في الربح فيدوس من أجله في تنافس شرس على قيم الأخوة، رحم الله عبداً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى، ودعا إلى ألا يبيع بعضنا على بيع بعض، أو يخطب على خطبة أخيه، كما أن هناك حضاً واضحاً على العفو عن الدَّيْن وعلى الصدقة الخفية، وكلها تجليات رحمة القلوب، وفي رمضان تتجلى بشكل واضح وجلي كي نذكرها إذا كنا قد غفلنا.

والرحمة ليست خلقاً إسلامياً فحسب، بل أداة للإدارة الاجتماعية، ونهج يدخل في السلوك اليومي للمسلم في بيته وفي متجره وفي الطريق وفي كل دائرة يدور فيها، قيمة نابعة منه هو لا تتوقف على مسلك من تقع عليه الرحمة ـ أحسن أم أساء، فقد رحم الرسول (ﷺ) في مكة والطائف من آذوه، ورحم في المدينة من كادوا له، ورحم فعفا في الفتح وأطلق من حاربوه، وفاضت رحمته فعذر بالجهل وتحمل غلظة صاحب الحق، وقد كان أورع الخلق وأحرصهم على حدود الله، لكنه أراد أن تتعلم الأمة عدم التعالي بالطاعة أو الولع بالمطالبة بالحق غير منقوص

حتى وإن كان ثمنه الاجتماعي فادحاً بل تتراحم عفواً وتعفو رحمة لتسمو، بل وقد ترحم العاصي حين تورثه المعصية ذلاً وانكساراً، كي يسأل العبد الله العافية ولا يستكبر بالطاعة ويخفض جناحه رحمة بالخلق وجبراً للضعف كما كان رسولنا (ﷺ) ـ قدوة الأمة ـ يفعل، بدءاً من رحمته الفياضة... بسؤال عن الجار الذي آذاه حين غاب، إلى المستوى السياسي العام، لا ثأرَ ولا تنكيلَ بل جبين عزيز ينحني شكراً لله، ونفس سمحة تقبل من الغير الرجوع والتوبة، وتترفع عن الحقد والحسد والغل، رحمة يعكسها حديث: «شركم من لا يقيل عثرة ولا يقبل معذرة».

ورمضان واحة لتلك المعاني المبثوثة في كل أزمنة المسلم وأمكنته ودورانه معها حيثما كان ومع كائن من كان، حتى الأسير من الأعداء فما بالنا بالرحم من الأقرباء.

اقرؤوا سنة الرسول وكيف كان خُلُقه... فكانت الرحمة سبيله ومنهجه، وهذه هي رسالة الشهادة على العالمين التي تجعل الإسلام منهجاً... لحياة طيبة... ليحمل المؤمن تلك المعاني في النفس... بعد رمضان.

مدرسة المغفرة

أوسطه.. مغفرة

رمضان شهر نزول القرآن بالبينات، ورمضان أوسطه مغفرة، فما هي دروس المغفرة في القرآن؟

المغفرة تقابل العذاب في آيات عديدة، وهي لمن يملك العقوبة والعذاب... إن شاء عذب وإن شاء غفر.

وترتبط بها معاني العفو والصفح، لكنها أعلى، ويرتبط بها الصبر.. فلا مغفرة بلا قاعدة من خلق الحلم والصبر، وهي قرينة الرحمة، فلا عجب أن يتكرر ويقترن اسم الله الغفور باسمه الرحيم.

لكن المغفرة لا تقع على بعض الذنوب كالشرك، أو لمن تراوح ما بين الإيمان والكفر المرة تلو المرة، أو من تمادى في الغي، والمغفرة قريبة من المستغفرين الأوّابين الذين لا يصرون على ما فعلوا... وهم يعلمون.

والعبد الصالح إن آمن وأصلح يطمع في مغفرة ورضوان، لكنه لا يفعل ذلك بظن لا يرفعه عمل وإلا لكان كاذباً في زعم

حسن الظن بالله: «لو أحسنوا الظن.. لأحسنوا العمل». والإقرار بالذنب أول مدارج المغفرة: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[1]، والله يصلح عمل الصالحين فيغفر لهم ذنوبهم، لكنه تعالى لا يصلح عمل المفسدين.

وحب الرسول (ﷺ) والإكثار من الصلاة عليه باب من أبواب المغفرة، كيف لا وقد قال له ربه أن يدعو الناس: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[2]، وكيف لا يغفر الله ذنوب المحبين للمصطفى (ﷺ) حب اتباع وتسنن وهُم على خطى من غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فتمت عليه نعمته.. واكتملت هدايته.

والذكر والقرب من الله والعمل الصالح مفتاح لنور يجعله الله للعبد يمشي به ويغفر له: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[3].

ونتأدب بأدب المغفرة فنتعلم كظم الغيظ والعدل في الغضب: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[4]، والمغفرة حين تغدو خلق المؤمن فإنها تعكس التواضع، لأنه حين يهم بالعقوبة يتذكر قول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[5]، تذكرها أبو بكر (رضي الله عنه) فيمن خاض في عرض ابنته

---

(١) «سورة الشعراء،» الآية ٨٢.

(٢) «سورة آل عمران،» الآية ٣١.

(٣) «سورة النور،» الآية ٤٠.

(٤) «سورة الشورى،» الآية ٣٧.

(٥) «سورة النور،» الآية ٢٢.

عائشة (رضي الله عنها) في حادثة الإفك فمنع عنه عطية كان يمنحه إياها، فلما نزلت الآية قال أبو بكر (رضي الله عنه): «بلى.. أحب أن يغفر الله لي!»، وعفا وأعاد ما كان يجريه للصحابي بعد أن اعتذر عما فعل. فالمغفرة من المؤمن وعي بأن ابن آدم يخطئ، وأن يلتمس المغفرة للآخرين... مغفرة الله له.

والاستغفار يعصم من العذاب: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[6]، وفيه صيغ للنبي (ﷺ) منها الاستغفار عن كل ذنب، ما وعى العبد وما غاب عنه، صغير الذنوب وكبيرها، ففي الاستغفار توبة متجددة، وهو قرين التسبيح: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾[7] لا ينشد العبد الصالح محض الإفلات من العقوبة بل يلتمس قرباً من الغفار لأنه يعلم أن الله غفور رحيم... وأنه ودود: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[8].

والاستغفار باب للرزق: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[9].. شكر النعم وعدم جحود فضل الله والمداومة على الاستغفار باب الرحمة الواسعة والرزق الكثير.

والله يغفر لمن يصلح بين الناس، فالسعي بالخير بين العباد مدخل إلى المغفرة، فالجماعة باب مغفرة واسع لا العبادة

---

(٦) «سورة الأنفال،» الآية ٣٣.

(٧) «سورة النصر،» الآية ٣.

(٨) «سورة هود،» الآية ٩٠.

(٩) «سورة نوح،» الآيتان ١٠ ـ ١١.

الفردية فحسب، والتوبة تقترن بالإصلاح، وكثير من الذنوب كفاراتها فيض خير يعم، التماساً لمغفرة الله وطمعاً في أن ينظر إلى العبد التائب نظر رحمة فيغفر له.

ومغفرة الله مغفرة القاهر فوق عباده، فهو سريع العقاب وهو غفور رحيم، فمسارعة الأوّابين إلى الفرار إلى جنب الله وقوفاً ببابه وإصلاحاً تدفع العقوبة والعذاب وتستدعي العفو والرحمة، وقد وعد الله عباده بذلك.

كما قرن القرآن بين الرحمة والمغفرة من ناحية، والتقوى من ناحية أخرى، فإن علم الله تقوى القلوب غفر الزلات، فكل ابن آدم خطّاء.. وخيرهم التوابون، والله يحب المحسنين: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[10]. ثم دفعه الإحسان والإصلاح إلى التأدب بالإحسان خلقاً في حياته في معاملة غيره.. فَلانَ جانبه.. وبعد العفو والمغفرة بينه وبين الناس زادهم بإحسان.. لينال حب الله.. بعد مغفرته.

﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾[11] وبين الطمع في عفوه وخشية عقابه يتقلب المؤمن في الدعاء بين الخوف والرجاء، ومنهم من يرتقي فيطيع طاعة المحب.. مجاهدةً للنفس وتسليماً للحق... ومن الناس من يبدل الله سيئاتهم حسنات... بعد أن يغفر لهم... ويرفعهم الدرجات: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[12]،

---

(١٠) «سورة النمل،» الآية ١١.

(١١) «سورة الحجر،» الآيتان ٤٩ ـ ٥٠.

(١٢) «سورة الأنفال،» الآية ٤.

وفي آية أخرى: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ للذين يخشون ربهم: بالغيب.

والله أرحم بعباده: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾[13].

وللاستغفار أوقات فضّلها الله.. منها السَحَر.. حين يجن الليل ويخلو كل حبيب بحبيبه، أو حين يغفل الغافلون ويقوم العاشقون لنوره.

نسأل الله منه.. ورحمة.. ومغفرة.

---

(١٣) «سورة الرعد،» الآية ٦.

رمضان.. والغيب والعتق من النار

أول صفات المتقين في كتاب الله في مفتتح سورة البقرة أنهم يؤمنون بالغيب.. وآخر رمضان ـ شهر القرآن ـ عتق من النار، وبين قبول الإيمان بالغيب.. والعتق من النار يوم القيامة.. مسيرة من «حياة العبادة» لله رب العالمين بمعناها الشامل، قبل الميلاد في هذا العالم كانت «كن».. الخلق الأول.. وكان سؤال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.. وجواب: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾... مروراً بعرض الأمانة وحمْل الإنسان إياها.. إلى نزوح الروح لتسكن في صورة الجسد وتحيا في هذا العالم كدار ابتلاء.. وتؤدي الخلافة في الأرض: من كدح.. وسير.. وقوامة وشهادة.. وإقامة الصلاة وإنفاق من رزق الله، واتّباع ما أنزل الله على رسوله (ﷺ): «وإيمان بما أنزل من قبله» من شعائر وشرائع، وجهاد في ترويض النفس وسعي إلى اتباع الهدى، وتجدّد لليقين بالآخرة علماً وحقاً.. إلى أن يحمل الموت ثم الحشر تلك النفس إلى: عين اليقين.

﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ﴾[1].

---

(١) «سورة التوبة،» الآية ١٠٥.

العتق من النار هو جزاء حياة يختزلها شهر رمضان في ومضات، وتختزنها لياليه في نفحات، ذروتها ليلة هي خير من ألف شهر. حساب عمر الإنسان لو مدّ الله له فيه فجاوز الثمانين، حياة تقوم لو شاء الإنسان على اختيار حر للإيمان بالله الذي لا تدركه الأبصار... فهو غيب، وملائكته الذين هم غيب، وكتبه التي هي من مصدر الغيب، ورسله الذين نصدقهم فيما يخبرون عنه من غيب، واليوم الآخر الذي هو غيب، والقدر الذي هو غيب.

حكمة التشريع قد يدركها العقل حين يجتهد، لكن تبقى فيها أبعاد من التعبد بالغيب، وهنا التسليم بحدود العقل إدراك لمساحات الغيب.. والغيب: غيب الزمان: أزل وأبد، وغيب المكان: آن وزمن، وغيب الوجود: ما غاب من المُلك وما غاب من الملكوت، وغيب العوالم والأكوان، بل ما غاب عنا منا في أعماق النفس من فطرة التوحيد ونزعة الطين.. نعيد اكتشافه ونجلو أدرانه.. بالعبادة.

عنصر الغيب في حياة المؤمن حي وحاضر، وله في تفاصيلها تجليات، وهو يرسم حدود العقل لكنه يفتح له آفاق الحرية، ولأن الله وحده الأعلم فعلى العقل أن يسعى ويجتهد، ولأن الله وحده هو الأعلى فعلى البدن أن يسعى وينطلق، ولأن الله وحده هو الأحكم فعلى البشر أن يتعارفوا ويتعاونوا ويتدافعوا، ويختاروا.. ويتحملوا مسؤولية ذلك كله، ويوم القيامة ينبئهم بما كانوا يعملون ويفصل بينهم.

لكنّ الإنسان ينسى، وقد يهتز ميزان الغيب في وعيه فيجهل، ويغفل، وييأس، ويطغى، لذا يحتاج إلى تذكرة...

ورمضان من محطات التذكرة التي تمتد شهراً كل عام، والحج مثله. ولو مرة في العمر، وهو فرصة لشحذ الذاكرة الإيمانية للإنسان وترويض للجسد لتشرق الروح، وتربية الفرد لتنمو الجماعة، وهو موسم للربانية لتسمو البشرية، وكسر لعادات الأوقات لنسترد الوعي بالأزمنة الممتدة في ذواتنا وفي مساراتنا وفي مآلاتنا... نحو الرُجعى.

حين يقول الله تعالى: «الصوم لي.. وأنا أجزي به» فإن معنى معية الله ومراقبته وتقواه يصبغ تلك العبادة، فيوقظ الوعي بحضور الغيب في الشهود، وشهادة الحضور بالإيمان بالغيب، وحين يحث الله على العمل فيه ويجزل العطاء سبعين ضعفاً ـ ولديه مزيد ـ فكي لا يظن ابن آدم أن قوله «لي..» رهبانية أو انقطاع.. بل هو له... إخلاصاً في العمل ومراقبة لله في السعي، وحثاً على الإحسان.

فالله (ﷻ) يلفتنا إلى العلاقة الوثيقة بين رحمته وسعينا بالمعروف، ورحمتنا بالخلائق، والعلاقة بين مغفرته وعفونا عن عباده، والعلاقة بين تقواه بالغيب في السر والعلن.. ووفائه لنا ـ يوم القيامة ـ بذلك: ديننا الحق.. بالعتق من النار.

وكمال العبودية لله بالتوحيد... عتق من أسر ما عداه، وجائزته: العتق من النار.. ومن آمن بالغيب منحه الله مفاتيح الشهادة وسخّر له أسباب المادة ومكّنه من الأسرار الكامنة بين الكاف والنون.. وآتاه الحكمة، وعلّمه، وفهّمه، ورزقه نوراً يمشي به.. وبصيرة.. ففاز في الدنيا والآخرة.

وقد قص الله في الكتاب القصص على رسوله من أنباء

الغيب.. . ليثبت به الفؤاد، وليدرك سنن التاريخ، وحدثنا عن عوالم أخرى هي من الغيب الخفي عنا كي لا نطغى، ونعلم أننا لسنا وحدنا في هذا الكون.

وخشية الله بالغيب هي التي تورث العبد رحمته ومغفرته، فتتقاطع حلقات الرحمة والمغفرة والعتق من النار، وتورث البشرية عمرانها والحياة الطيبة.

ومن آيات الله وفيض منته أنه يمنح العبد مفاتيح التعامل مع الغيب لا مفاتيح الغيب فتلك: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[٢].. ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾[٣]، ومن مفاتيح التعامل مع الغيب: الدعاء، وفي الحديث: «لا يرد القضاء.. إلا الدعاء»، فما أكرم الغفور الرحيم في عطائه، وما أقربه ممن دعاه، وما ألطفه بعباده.

الحمد لله رب العالمين.

---

(٢) «سورة الأنعام،» الآية ٥٩.

(٣) «سورة الجن،» الآية ٢٦.

رمضان بين ضجيج الصور ومدارج الإحسان

أكثر ما أخشاه هذه الأيام - بجدية شديدة - هو أن تنشأ الأجيال الجديدة وهي تظن أن رمضان هو شهر المسلسلات التلفزيونية، وحفلات الإفطار والسحور بصورتها المعهودة.

تخيل نفسك طفلاً عادياً ينشأ في مجتمع يرسل إليك عبر الصور رسائل مستمرة على شاشة التلفاز وعلى كل الإعلانات المتناثرة على الطرق العامة وبشكل بالغ الفجاجة والإلحاح أن رمضان قادم وأن كل المسلسلات ستكون على هذه القناة أو تلك، ماذا تفهم من ذلك؟! هذا ببساطة عنف بصري وثقافي مذهل يبلغ مرتبة الإرهاب ويشوّه قيمة هذا الشهر الروحية.

هذا الطفل أيضاً بالتأكيد يسمع في البيت أن رمضان شهر الرحمة والخير، لكنه حين ينزل مع أسرته إلى الشارع يشاهد صورة الناس وهي تشتري مستلزمات رمضان بشكل لا يعكس على الإطلاق ذلك، فالمتاجر لا موطئ فيها لقدم والأسواق مزدحمة بشكل غير عادي فهذا موسم الطعام و«الياميش» والولائم التي تجعل مشهد مائدة الرحمن التي يقيمها البعض يبدو هزيلاً إلى جانب مشهد الموائد المكتظة بالطعام في البيوت والنوادي

والفنادق حيث أصبح حجز قاعة لإقامة إفطار جماعي لزملاء العمل أو لهيئة ما ضرباً من المستحيل، كلها محجوزة والوجبة ثمنها تضاعف خلال عام واحد، سيسمع هذا الطفل ببراءة أن رمضان شهر الرحمة.. ويراه عياناً أنه شهر «اللّحمة».

في كل عام تزداد شراسة السوق، سوق الإعلام الذي صار يسير على قدمين هما الإعلان والإثارة، لذا فلا تستغرب لو وجدت تلك الإعلانات الضخمة التي تعلن عن «أجرأ» قناة في رمضان.. أو أكثر مسلسل إثارة وتشويقاً... ويزداد توحّش سوق الاستهلاك بشكل مخيف، حتى صار الشراء في الأسواق الكبيرة عادة مختلف شرائح المجتمع، والذي لا يملك الشراء يذهب للفرجة والاشتهاء، وهو ما يخلق كما يقولون في الدراسات الاجتماعية والنفسية «ثورة التطلعات» التي يصاحبها طول الوقت مشاعر الإحباط عند الجميع، عند من اشترى فأصبح يتطلع إلى المزيد بنهم وشره ترف غريب، ومن لا يملك الشراء فيلعن في سره (أولاد الـ....) الأغنياء الذين يشترون ويسرفون ويتفاخرون، وتزداد الهوة ويزداد المجتمع توتراً وعنفاً وانقساماً... لا تراحماً.

وفلسفة رمضان أن يكون هو الدواء الأخلاقي لكل هذا الفحش، وأن يغرس فينا معاني الجمال في زمن القبح، وأن يردنا إلى فضاء المعنى والباطن في مواجهة صور الظاهر والمظاهر.

سيصبح التحدي أمامنا في رمضان كي نحتفظ بهذا الشهر ونحفظه هو أن نواجه صوراً إضافية وسوقاً لا تقل شراسة هي السوق السياسية، فقد وجد البعض «رمضان» فرصة قبل

الانتخابات، وبدأ بالفعل نصب مولد الدعاية الانتخابية في طول البلاد وعرضها، وسيكون رمضان موسماً لأعمال ظاهرها الخير وباطنها الدعاية لرجال «البر والإحسان» المرشحين، حسناً.. فليأكل الفقراء هذا الطعام حلالاً لهم وليحذر أهل السياسة أو الطامعون في الانضمام إليهم من فساد النية.. وإفساد الديمقراطية.

يصعب في ظل هذا الضجيج البحث عن صفاء العبادة وجلاء النفس، لكن هذا لون من ألوان الجهاد اليوم، أن يملك المرء تحدي المسلسلات بالحرص على العبادات، ويواجه شراهة الاستهلاك بالحرص على المعتاد بل العطاء والزهد، حتى عند تبادل الزيارات يمكن التواصي بالاعتدال والتعاون في تشارك الطعام بين الأسر والأصدقاء.

مثل كل عام يأتي العرب في الترتيب الأول على رأس الشعوب كلها في حرصهم على الذهاب إلى العمرة في رمضان، وكثير منهم اعتمروا من قبل، نتمنى أن يتذكروا العام القادم أن هناك ملايين الأسر تحت خط الفقر وملايين الشباب لا يملكون الحد الأدنى لتأسيس أسرة تحقق لهم العفاف والاستقرار، وأن أداء حق المجتمع ليس مجرد التصدق بلقمة على جائع بل تحقيق الأمن الشامل في حده الأدنى، وهو واجب الحكومات لكنه أيضاً مسؤولية تضامنية للمجتمع، وأن الفرد يُدعى يوم القيامة إلى الحساب مرتين، مرة ليقرأ كتابه، ومرة ثانية ضمن أمته حين تُدعى كل أمة إلى كتابها كلها.

ومن عامل الصور ننتقل إلى مدارج الإحسان.

من أمام الشاشات ومن عالم الاستهلاك نغادر لنبحث عن معاني الإحسان في العبادة.

رمضان فرصة لمعراج الروح، في بيوت الله يقف المرء ليرتقي، ومع القرآن في هذا الشهر الفضيل يسعى إلى أن يطهر القلب من الأدران والنفس من الآثام.

لذا فمن الطبيعي أن تتأهب بيوت الله لاستقبال رمضان، على الرغم من أن الاهتمام بها واجب في كل الشهور، لكن رمضان موسم العبادة.

وفي رمضان ندرك أن مفاهيمنا الإسلامية ما زالت في حاجة إلى الاستجلاء، وقيمنا الأخلاقية والاجتماعية في حاجة إلى التفعيل.

في شهر رمضان امتدت موائد الطعام، والأيدي لمساعدة أصحاب الحاجات، البعض يتباهى بذلك والبعض يتواضع لله، وفريق يهنّئ الناس برمضان ويضع صورته.

تركتُ الصور في رمضان ونزلت إلى الصلاة، وفي تجوالي بين المساجد في ليالي رمضان بحثاً عن مكان يشعرني بالخشوع اتضحت لي معانٍ لمفهوم الإحسان الذي ظلَمَتْه الثقافة الشعبية فحصرته في الزكاة والصدقة، على الرغم من أن الإحسان من أعمق المفاهيم الإسلامية التي تقترن بتقوى الله من ناحية بأن يحسن المرء في كل الأعمال مراقبة الله وابتغاء مرضاته، ومن ناحية أخرى يقترن باستكمال أبعاد الجمال في عمارة الأرض.

في مسجد قد تجد من عُني بتوفير مساحة للنساء، وقد تسللت للأنف رائحة بخور لطيف.

وفي مسجد آخر طافت على المصليات بعض الشابات يحملن ماء بارداً، ووجدت ذلك لمسة إحسان جميلة، زادها جمالاً تلك الابتسامة الرقيقة للفتاة التي انتظرتني حتى أنتهي من كوب الماء الذي وجدته مخلوطاً برائحة الزهر فدعوت لها ولمن مزج الماء بالزهر بأن يشرب من الحوض من يد رسول الله (ﷺ).

بعد خروجي من المسجد وقفت أتأمله من الخارج، ما أجمل هذه العمارة الإسلامية وفلسفتها في التعامل مع الفراغ والمكان، وتلك الروح الجميلة التي أبدعت النقوش وزينت بجماليات الخط العربي ونقوش هندسية ونباتية تلك الجدران والأسقف. وكان يكفي المعماري المسلم أن يبني مسجداً جامعاً، لكن الإيمان والإحسان دفعاه إلى الجمال فبقيت لنا تلك الصروح الحضارية.

ألحت عليّ آية: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]، فعدت إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن أطالع مادة (ح س ن)، فوجدت معاني عديدة وفريدة، من الحسنات إلى الإحسان إلى حسن الثواب إلى الأسماء الحسنى.

واللافت أن الإحسان أداء لكنه أيضاً منزلة، فإن وضع المرء نفسه في تلك المنزلة أصبح ما هو فضل وزيادة عند غيره... عنده من واجب، كما في قوله تعالى: ﴿مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]، فإن أنزل المرء نفسه تلك المنزلة وقام بحقها كان له الجزاء: الحسنى، وهي منزلة عند الله، وفوقها زيادة.

---

(١) «سورة الأعراف،» الآية ٥٦.

(٢) «سورة البقرة،» الآية ٢٣٦.

كانت أمهات المؤمنين تعطر دراهم الصدقة لأنها لا تقع في يد المسكين بل في يد الله، تعالى وتَنَزّه، وفي تاريخ الأوقاف وما حبس المسلمون مالهم من أجله... آياتٌ في الإحسان، من أعلى المصالح الاجتماعية، مثل: مؤسسات الصحة والتعليم إلى أبسط المقاصد التي تدور مع الرحمة، مثل: توفير اللبن للقطط الضالة والقمح للحمام في ساحات المساجد.

وجدير بنا في رمضان أن نستحضر تلك المعاني ونتذكر تلك المقامات ونتأمل في آيات الله ونحن نسارع إلى ختم كتابه، وأن نستبطن في نفوسنا معاني الجمال في القول والعمل بإحسان.

ما زال علينا أن نتعلم كثيراً لنكون أهلاً لاستقبال رمضان، وما زال أمامنا نضال عظيم من أجل الدفاع عن هذا الشهر ضد من يريدون تزييفه، تحركهم دوافع المال والسلطة والشهرة ولا يبالون لو أفسدوا علينا الدنيا والدين.

اللهم أعنا في رمضان على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك واصرف عنا شياطين الإنس كما قيدت شياطين الجن.

ما بعد رمضان.. بناء الجماعة المؤمنة

جلست قبل أن يرحل الشهر أفكر في الحصاد وفي استشراف الأثر والمنطق الذي يمكن استصحابه منه لبقية أيام العام. وجدت أن رمضان هو شهر الجماعة بامتياز، كما أن الحج هو بؤرة اجتماع الأمة حول رمزية الكعبة التي تتعدد مستوياتها، وعلى الرغم من أن المرء في رمضان يكثر من الطاعات الفردية، بدءاً من الصوم الذي وصفه الله بأنه له وحده وهو الذي يجزي به، مروراً بالصدقات وفعل الخيرات وإيتاء الزكاة في هذا الشهر الفضيل الذي يجزي الله به عن النافلة كالفريضة ويضاعف ثواب الفريضة كما يشاء، وصولاً إلى صلاة القيام (التراويح)، وقراءة القرآن الذي يحرص المسلم على أن ينهي بها ختم الكتاب في هذا الشهر، وختاماً بإخراج زكاة الفطر وصلاة العيد، كل هذه المحطات في مسار الشهر بأزمنته المتراكبة ودلالاته الوجودية تدور حول مركز هو فكرة الجماعة، فالصوم يروض الجسد الفردي كي يتواصل مع الجسد الجماعي بدرجة أعلى وأعمق، والعطاء المادي من صدقة وزكاة وإطعام يجعل الجماعة معبر التكفير عن الذنوب وجبر التقصير في الصوم لعذر مقبول والتقرب لله برحمة خلقه والعطف على الضعفاء

والفقراء المساكين فيما وراء الحق الواجب لهم في المال، وصلاة القيام هي تواصٍ بالحق والصبر، وتحلّق حول مأدبة القرآن واصطفاف لتلاوته وحرص على ارتياد المساجد كي يتعلق قلب المؤمن بمساحات العبادة بعيداً عن مساحات اللهو والدنيا، كي يتعلم كيف يستثمر الوقت في التطلع إلى الغيب، فإذا غادرنا الشهر جبر الله النفوس بفرحة عيد، وترفق بالنفس بتأقيت ينهي الشهر كي لا تكلّ من العبادة، وتبقي الجماعة محورية، زكاة الفطر استمرار للعطاء، وصلاة العيد تلاحم للجموع في ساحات المساجد وفي الخلاء تحت سماء تظل الجميع في مساواة أمام الله كأسنان المشط... يبقى الدرس هو ما نصطحبه معنا لبقية العام، وما نتعلمه من رمضان لإثراء المجتمع ومساحات المجال العام، والدرس هو الجماعة: كيف نبنيها على رابطة إيمانية تحقّق الأخوة بين أفرادها على ميثاق «العبدية/التعبدية» لله، وكيف يكون هذا الميثاق منصة لإكرام الخلق على قاعدة البشرية - مسلمون وغير مسلمين - بعد أن أدّبنا رمضان وعلّمنا التواضع لله ركوعاً وسجوداً ورحمة بالناس، عطاء وتودداً، ورفقاً وتجرداً، فالأخلاق التي يبثها رمضان في المجال العام لا يمكن ولا يستقيم ولا ينبغي أن تكون حكراً على جماعة من دون أخرى، وفضاءات الأخلاق الدينية هي دعائم وأسس الفضائل الاجتماعية والثقافة السياسية، ويكون من أعظم دروس رمضان أن نعيد البعد الإنساني إلى الفضاء العام وإلا نكون قد أهدرنا رمضان في خيانة بغيضة لقيمه ودروسه، لذا فإنه: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه». الناس بعد رمضان صنفان: **الأول** يقول كما قال أحد الشعراء: «رمضان ولّى هاتها يا ساقي»، أي عودة إلى المعاصي، **والآخر** يقول

رمضان غادرنا لكنه ترك لنا ينابيع وسواقي، أي استمرار للمغزى الإنساني والأخلاقي والمدني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي بل والكوني في رمضان، فنحن في رمضان نستعيد موضعنا على خريطة الكون وعوالمه الإنسانية والطبيعية بل أزمنته الدنيوية في تقاطعها مع الأبعاد الغيبية والأخروية.

ويحدث للمرء في الغالب ارتباك عاطفي وفكري في عيد الفطر، ففي رمضان تسود حالة من انتعاش الروح بالعبادة، وتواصل الأرحام والأواصر بالتلاقي في دعوات الإفطار، وترويض الجسد بالصوم والنفس بالتقوى والمراقبة والمحاسبة، ويأنس الوجود بهذه الحالة حتى يكاد يعتادها، لكن لأنه لا رهبانية في الإسلام، فإن رمضان أشبه بحالة استثنائية ندخلها لنستعيد كل عام هذا السمو الروحي والتجرد الأخلاقي والتواصل العاطفي والاجتماعي، أملاً في أن نرتقي مع كل رمضان، فإن شغلتنا الدنيا بعده نظل نستصحب فلسفته في بقية الشهور.

فإن أوشك رصيدنا على النفاد جاء رمضان الذي بعده ليلبي أشواق الروح ويعيد شحذ همة الطاعة وصقل الروح وشد ما ارتخى من علاقات الناس بالنسيان والانشغال، وليجدد مواسم الخير والإحسان بكل معانيه وتجلياته، في العيد يسود مناخ عام من البهجة، وهذا رائع، فهذا مقصد العيد، أن يخفف الله به عنا وأن يفرح الناس ويستعيد الجسد طاقته لخدمة حركة الحياة بعد دروس رمضان. . . ويتم الترويح عن النفس. لكن الناس عادة يحتفلون بالعيد بقوة، ويخرجون من رمضان باندفاع، يندفعون إلى الشوارع والأماكن العامة، ويندفعون إلى تعويض الجسد عن الصوم بكعك العيد، ويندفعون في الترويح والسهر ويبالغون في

الضجيج... وهو ما يدخلهم بعد أيام في حالة من الغربة والحنين الفوري إلى رمضان مرة أخرى، ويصبح انتظار رمضان الذي يليه هو الصبر الحقيقي الممتد عبر العام.

الشعائر الدينية والعيد
بين اليقين... والأيقونة

من المشكلات التي تواجهها أمتنا المصرية في هذه اللحظة التاريخية المتأزمة هي مشكلة أيقنة الدين والوطن.

والأيقونة هي في التراث الديني صورة رمزية أو رمز ديني هدفه الإشارة إلى منظومة عالية وشاملة وعقيدة كاملة، ووظيفة الرموز في الثقافة عادة هي اختزال المعنى الواسع كي يتم تذكره واستحضاره في الحياة الاجتماعية اليومية، أو في كل عام مرة. رمز الهلال على علم هو أيقونة وطنية، صورة الكعبة على حائط هو أيقونة، صليب على صدر مسيحية أو صورة العذراء في الدير أيقونة، شجرة الكريسماس وفانوس رمضان أيقونة، وهرم على كراس التلامذة هو أيقونة التاريخ القديم... وهكذا تتفاوت درجة الرمزية العابرة والقدسية العميقة بين أيقونة وأخرى، وقد تغدو بعض الأيقونات الثقافية أشد قداسة عند أصحابها من أيقونة دينية. وعلى وجه العموم لا يسمح الإسلام بأن تتمركز قداسة و«تحل» في رمز لأن هذا بداية الوثنية (الكفار كانوا يقولون أن الأصنام تقربهم إلى الله).. بل يبقى حتى الحجر

الأسود محض حجر. .وحرمة دم المسلم أكبر عند الله من هدم الكعبة.

بعض الأديان لها أيقونات وبعضها تندر فيه الرموز البصرية، وفي الإسلام لا أيقونات لطبيعة التصور الإسلامي عن الله باعتباره: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[1] ولا يتجسد في هذا العالم، لكنّ المسلمين «أيقنوا» بعض الشعائر (أي حولوا المعنى العميق للرمز والوظيفة الاجتماعية الفعالة إلى إشارة مختصرة ظاهرية) والطريف أنهم أرادوا أن يعبروا بذلك عن أنهم «أيقنوا» بالدين أو بالوطن (من اليقين) من دون أن يدروا أنهم فقط «أيقنوه» ومن دون استحضار لكثير من المعاني الدينية الجوهرية في الحياة اليومية، والمسيحيون فعلوا الشيء نفسه.

في ممارستنا للتدين في مجتمعنا، تترس الكل مع اختلاف الوجهة بالأيقونة ونسي المعنى الأسمى، ولم يحفظه أو «يحفظه»، اهتم بالرمز وغفل عن الأصل الذي يرمز له.

حتى الوطن «تأيقن»، أغنية هنا وشعارات جوفاء هناك أو كأس كرة أو فوز فيلم بجائزة، من دون أن ندرك أن الوطن معيار كرامة المواطن العادي فيه. والوعي بأن الوطن ينهض بنا ومعنا، وأن التحايل اليومي على القانون والتجاوز العادي لقيم المواطنة والتفكير الفردي الذي يدور حول الذات فقط في النظر إلى اللحظة وإلى المستقبل. . . يقتل الوطن، ويهلكنا كأفراد ـ لأننا لن نسعد أو نتحقق إلا في وطن حر عزيز ولا بديل عن ذلك، المذهل أنه مع تنامي التحديث في مجتمعنا وصعود أهمية

---

(١) «سورة الشورى،» الآية ١١.

«المشهد» أو التحول إلى مجتمع الفرجة كما يسميه علماء الاجتماع ونمو «المجال العام البصري» استمسك الناس بالأيقونات أكثر، على الرغم مما نلحظه، من تردي الأخلاق وخصخصة التدين وإسقاط الفعل المدني منه والتراجع الملحوظ في «إنفاق العفو» و«تشكل العرف» و«بذل الفضل».. وسرنا في طريق خطر: تسييس الدين بأكثر مما يحتمل الدين وتحتمل السياسة. وليست هذه دعوة إلى العلمانية، بل دعوة إلى عودة الدين ذاته ليحضر بشموله وكليته في حياتنا لنصلح به التمدن لا لنربك المجال العام، ونتترس به ضد البطش والاستبداد لا ضد بعضنا البعض، وأن ترجع الأيقونات الدينية والوطنية والاجتماعية إلى دورها الأصلي: أن تكون مجرد رموز تذكرنا بالأصل الفعال لنحقق النهضة لا أن تشغلنا وتحجبنا عنه وعنها...

في العيد نمارس شعائر تذكرنا بجمع شمل الأمة، لكن استحضار المعاني الاجتماعية والسياسية الأكبر للصوم أو للحج لازم مع الشعائر. وننحر الأضاحي لكن نحتاج إلى أن نتذكر فلسفة مشهد إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) الذي تشير الشعيرة إليه، لا معنى للذبح لو راكمنا اللحم في الثلاجات وجيراننا في الوطن يأكلهم الجوع، فلنخرج الذبيحة كلها إن استطعنا وقد أفتى شيوخنا أنه يجوز توزيع لحوم الأضاحي على الفقراء مسلمين وغير مسلمين، مواطنين ولاجئين.

في إسطنبول بتركيا مسجد اسمه «كأني أكلت» بناه رجل بسيط الحال كان يوفر ثمن وجبة كل يوم ويقول لنفسه: «كأنني أكلت» حتى جمع من المال ما بنى به المسجد. دعونا نسقط وجبة في اليوم لنطعم ثلث الأمة المصرية المحروم إلا من وجبة

واحدة، دعونا ننقذه من اجتماع البرد والجوع والخوف.

لكن من حقنا أن نفرح ولو لأيام ونسترد روابط الإنسانية والقربى، ونجدد بالصوم فرحتنا بيوم الفطر، وبشعيرة الحج نسبنا إلى إبراهيم (ﷺ)، هذا النسب نسب فعل وتشييد ونداء وشهادة على العالمين بتفعيل قيم الرحمة والعدل والحرية في واقع الناس، هذه أيام شعائر لكن للفروض حكمة ومقاصد وتجليات: حفظ دين وشهود منافع دنيا وتأكيد وحدة أمة وتأسيس عدل واحتفاء بالتنوع والاختلاف مع التوحد والائتلاف.

الأعياد محطات لنتذكر المعنى ونستعيد الجوهر ونكون «شهداء» على الناس، ويتجلى الفعل مكتملاً ليعكس منظومة حق وعدل أوسع من الشعيرة ولا تُختزل فيها، أما أن تتمظهر الأمور ويكون القشر بلا لُب فتلك هي كارثة «الأيقنة»... وتلك بداية ضياع اليقين.

كل عام وأنتم بخير.

هبة رءوف عزت

السيرة الذاتية

مدرّس النظرية السياسية والفكر السياسي بجامعة القاهرة، ومحاضر زائر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وجامعة أسيوط، وجامعة ماستريخت بهولندا..

تخصصت في موضوعات المواطنة والعولمة وكذلك قضايا الفكر الإسلامي والحركات الإسلامية المعاصرة، وكان موضوع رسالة الماجستير «المرأة والعمل السياسي: رؤية إسلامية»، وموضوع رسالة الدكتوراه «المواطنَة: دراسة لتطور المفهوم في الفكر الليبرالي».

زميل زائر بجامعة بيركلي/كاليفورنيا ٢٠١٠، ومركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية ٢٠١٢ (المملكة المتحدة) وجامعة جورجتاون ٢٠١٢ (الولايات المتحدة)، وكلية الاقتصاد جامعة لندن لعامي ٢٠١٤ ـ ٢٠١٥.

محاضر زائر للمتدربين من الدعاة والوعاظ بدار الإفتاء المصرية ٢٠٠٦ ـ ٢٠٠٨، ودورات إعداد الأئمة والدعاة بوزارة الأوقاف المصرية ٢٠٠٦ ـ ٢٠١٠.

عضو مؤسس، وعضو مجلس أمناء «مؤسسة الإسكندرية» (لندن) لدعم التعليم الجامعي في العالم العربي ٢٠١١ ـ ٢٠١٥.

منسق دبلوم تخصصي لحقوق الطفل كمشروع تعاون بين ٨ جامعات عربية وأوروبية بكلية الاقتصاد/جامعة القاهرة ٢٠١٠ ـ ٢٠١٥.

باحث مشارك في تقرير «المجتمع المدني العالمي السنوي» ٢٠٠٤ ـ ٢٠٠٩ الصادر عن جامعة لندن، وباحث رئيسي في مشروع الديمقراطية العالمية بجامعة واريك بالمملكة المتحدة ٢٠٠٧ ـ ٢٠١٢.

محرر مشارك لـ **موسوعة أوكسفورد عن الإسلام والمرأة** الصادرة بالإنكليزية ٢٠١٣.

لها العديد من الكتابات والبحوث العلمية بالعربية والإنكليزية والألمانية، ومقالات في الشأن العام في مصر في جريدة **الشعب** ١٩٩٢ ـ ١٩٩٨ وجريدة **الدستور** ٢٠٠٦ ـ ٢٠١٠.

أسست حلقة دراسة حرة لقراءة **مقدمة ابن خلدون** بمسجد السلطان حسن بالقاهرة ٢٠١٣ ـ ٢٠١٤، ثم بكلية ورشستر بجامعة أوكسفورد بالمملكة المتحدة ٢٠١٤ ـ ٢٠١٥.

حصلت على تكريم من مؤسسة التبادل العلمي الألماني بالقاهرة DAAD لدورها في تطوير العلاقات العلمية بين مصر وألمانيا.

مؤسس ومستشار للعديد من المبادرات التنموية والشبابية.